الفصـــل الخامس

فى تشريع العلاقات مع الأعداء

سورة البقرة هى أول سورة نزلت فى الوحى المدنى ..أى فى الوحى الخاص بالمجتمع . وفى بدايتها حددت :

١ ــ المؤمنين .

٢ ــ والكافرين .

٣ ــ والمنافقين .

.. حتى يكون المؤمنون على علم بأنفسهم .. وبأعدائهم فى الخارج ، والداخل على السواء .. وحتى يكون التحديد للعلاقات الذى يأتى به الوحى المدنى بعد ذلك تحديداً واقعياً .

ــ فوصفت المؤمنين فى قوله تعالى :

« ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه (أى هذا القرآن لاشك فى أنه من عند الله ، وأنه حق وصدق) ،

« هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب (والمراد به : الله .. والملائكة) ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (١) ..

وجعلتهم بذلك أصحاب إيمان .. وأصحاب تطبيق وعمل . فهم يؤمنون .

---

(١) البقرة : ١ ــ ٥

بالغيب ، وهو الله ، والملائكة .. ويؤمنون بالقرآن ، وبما سبقه من كتاب.. ويؤمنون بالآخرة والبعث . وهم أصحاب عمل . يقيمون الصلاة .. وينفقون مما رزقهم الله ، ابتغاء وجه الله .

ـــ ووصفت الكافرين بما يقوله سبحانه :

« إن الذين كفروا (أى من الماديين .. ومن أهل الكتاب) سواء عليهم : أأنذرتهم ، أم لم تنذرهم ، لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » (١) ..

وأوضح هذا القول : أن الكافرين من أعداء المؤمنين ، لم يكفروا لقصور فى الحجة . أو لطلب مزيد من الإقناع . وإنما كفرهم جاء نتيجة لعدم إرادتهم الإيمان ، ولرفضهم النظر فى أى منطق يوصل إليه . وذلك بسبب ما طبعوا عليه ، من سد منافذ الإدراك دونه . فقلوبهم مغلفة .. وأسماعهم مغلقة .. وأبصارهم عليها غشاوة . وبذلك لايستطيعون إطلاقاً أن يغيروا من شأن أنفسهم ، وأن يتحولوا من موقف هم عليه الآن .. إلى موقف آخر جديد . ويستوى هؤلاء الكافرون فى أن يكونوا ماديين ومشركين .. أو محرفين ممن لهم كتاب سابق . كذلك يستوى عندهم فى غلق منافذ الإدراك ، دون الإيمان : أن يأتى لهم نذير بشأن كفرهم وعنادهم ، أو لا يأتى اليهم أحد ينذرهم بذلك .

ـــ ووصفت المنافقين ، ممن يتسترون بإعلان الإيمان على حقدهم على المؤمنين ، بما جاء فى قول الله تعالى :

« ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين.
« يخادعون : الله ، والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم ، وما يشعرون .
« فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون.
« وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون .

---

(١) البقرة : ٦ - ٧

« ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون .

« وإذا قيل لهم : آمنوا ، كما آمن الناس؟قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا : إنهم هم السفهاء ، ولكن لايعلمون .

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، واذا خلوا إلى شياطينهم (أى إلى من يؤثرون عليهم ، وهم كبراؤهم) قالوا : إنامعكم ، إنما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً (وذلك لأنهم آمنوا أولا فكأنهم أوقدوا شعلة الإيمان فى نفوسهم) فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » (لأنهم أطفأوا شعلة الإيمان ، بكفرهم من جديد . فعاد بذلك الظلام فى حياتهم : إلى ما كان عليه من قبل)(١) .

فجعلت هذه الآيات من صفات المنافقين :

١ — أنهم ليسوا مؤمنين على الحقيقة : « وما هم بمؤمنين » . .

٢ — وأنهم يحاولون بإعلانهم الإيمان . أن يخدعوا الله والمؤمنين : « يخادعون الله ، والذين آمنوا » .

٣ — وأنهم مرضى النفوس بالنفاق والضعف « فى قلوبهم مرض » .

٤ — وأنهم يدعون الاصلاح وهم مفسدون : « لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون » .

٥ — وأنهم يأنفون أن يكونوا فى مستوى واحد مع أتباعهم : « قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء » (وهم المستضعفون أو التابعون) .

٦ — وأنهم جروا أنفسهم إلى ظلام جديد ، بعد أن أشعلوا قبس الإيمان فى نفوسهم : « فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

---

(١) البقرة : ٨ — ١٧

وهؤلاء قد يكونون من الماديين الوثنيين .. وقد يكونون أيضاً من أهل كتاب سابق . وعلى أية حال : الكافرون صراحة .. أو من وراء حجاب شفاف . هم أعداء المؤمنين . وللمؤمنين منهم موقف ، يمليه الوحى المدنى ، فى سوره المختلفة . وسنرى أن هذا الموقف يختلف بالنسبة للأعداد الماديين ، عنه بالنسبة للأعداء الآخرين من أهل الكتاب .. كما يختلف فى أول قيام المجتمع عنه فيما بعد ذلك ، حتى فتح مكة ، وحتى عزة المؤمنين وقوتهم .

* * *

ـ فى صلة المؤمنين بالماديين الوثنيين .. أو بالمشركين :

ـ ولم يكن المجتمع الإسلامى فى بداية عهده بالإيمان بالله وحده : قليلا فى عدده فحسب .. وإنما كان مع ذلك هزيلا فى قوته المادية : إذ كان أكثر المؤمنين أتباعاً سابقين للزعماء الماديين المكيين ، ولم يكونوا من أصحاب الشرف والجاه بينهم .

وتلك سنة المؤمنين بأى رسول أرسل من قبل الله ، لقوم من الأقوام. إذ كان من يعرفون بالمستضعفين أو الأراذل فى المجتمع هم أول من يؤمن برسالة الرسول المرسل وكان إيمانهم أولا يسبب حرجاً لزعماء المجتمع ـ فى ادعائهم ـ فى إيمانهم بالرسول : « **قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** » (يقول هذا : زعماء قوم نوح له ، مستنكرين أن يؤمنوا به ، بعد أن سبقهم بالإيمان برسالته : أتباعهم والضعفاء فى مجتمعهم)(١) .

ومن أجل ضعف المجتمع المؤمن ـ فى بداية عهده بالإيمان ـ فى عدده .. وقوته : كان موقف المؤمنين فيه إزاء أعدائهم الماديين ، وهم أكثر شراسة وأشد معارضة فى صراحة وعناد ، هو موقف التريث ، والتحمل ، لصنوف معارضتهم وعنادهم .. وألوان سخريتهم بالمؤمنين واستهزائهم بهم . وجاء هذا الموقف فى آية مدنية فى سورة مكية مبكرة وهى السورة العاشرة ، هى سورة المزمل ، فى قول الله تعالى :

---

(١) الشعراء : ١١١

« واصبر على ما يقولون ،

« واهجرهم هجراً جميلا » (أى هجراً لايشعرون فيه بإيذاء نفسى لهم)(١) .

فإذ يأمر الله رسوله عليه السلام بالصبر على مايقول هؤلاء الأعداء ضده وضد رسالته .. ويوجه إليه الأمر بالصبر وحده يطلب إليه أن يكون ابتعاده عنهم فى صورة مهذبة ، حتى لايثيرهم ولايستفزهم من جديد . وكما قيل غير مرة : إن الأمر من الله للرسول هو أمر ضمنياً للمؤمنين معه ، ولكن صورة الأمر للرسول وحده : تعطى أن الأمر بذلك كان مبكراً فى مرحلة البداية للمجتمع . وهذا ما يعطيه ترتيب سورة المزمل فى الوحى المكى . ومعنى ذلك : أن هذا الأمر جاء وضعف المؤمنين فى قوتهم البشرية ، على أشده .

والأمر بالصبر ، مع الابتعاد عن الأعداء فى تهذيب : يمثل المرحلة الأولى فى موقف المؤمنين من الأعـداء الماديين الوثنيين ، أو من المشركين المكيين .

وفى آية مدنية أخرى فى سورة مكية — وهى سورة الجاثية — يواجه القرآن الكريم : المؤمنين بهذا الموقف ، على نحو ما واجه به : رسوله ، صلى الله عليه وسلم من قبل . فيقول لهم :

« قل : للذين آمنوا : يغفروا للذين لا يرجون أيام الله (أى قل للمؤمنين : يصفحوا عن هؤلاء الذين لايتوقعون جزاء الله للمعارضين لدعوة رسوله . وهم هؤلاء الماديون) .

« ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون » (إذ جزاء الله آت ، لاريب فيه . فالعدل يقتضيه . لأنه : لقاء ما باشروه هم بأنفسهم ، ضد دين الله . ومن أجل ذلك يستحقون الجزاء على ما كسبوا بالفعل)(٢) .

---

(١) المزمل : ١٠ (٢) الجاثية : ١٤

.. فيأمر المؤمنين : لا بالصبر فحسب .. وإنما بالصفح عن هؤلاء المادين ، وبأن يتركوا جزاءهم بعد ذلك ، لله وحده . وموقف الصفح من المؤمنين إزاء أعدائهم المعارضين : من شأنه أن يحول بينهم — أى بين المؤمنين — وأن ينشغلوا بعداوتهم ، عن التكتل ، واستمرار النشاط فى الدعوة .

وجاءت آية مدنية ثالثة فى سورة مكية ، وهى سورة الأحقاف : تدعو رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى مزيد من الصبر ، وتذكر له أن الصبر فى مواجهة أعداء الدعوة هو السبيل الذى سلكه أصحاب العزم والبأس من الرسل ، من قبل . وهو سبيل النجاح للدعوة . كما تؤكد له أن العقاب من الله لأعداء الدعوة لاحق بهم حتما .لأنهم فاسقون وخارجون بمعارضتهم عن منطق العقل السليم ، وعن وقائع التاريخ الصحيحة . والعقاب لمثل هؤلاء . فتقول :

« **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** (أى أصحاب البأس والإرادة النافذة) ،

« **ولا تستعجل لهم** (أى لاتقلق بشأن معاملتهم لك ولدعوتك ، ومن أجل ذلك تطلب من الله فى نفسك أو فى الدعاء إليه : أن يعجل لهم بعذابهم) ،

« **كأنهم يوم يرون ما يوعدون. لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** (إذ أن هؤلاء المعارضين يوم يلحقهم العذاب لايتصورون إلا أنهم قضوا فى دنياهم جزء من نهار فقط .. وليس يوماً .. ولا شهراً .. ولا سنة . وهذا كناية عن أن عذابهم من شدته سيذهب بكل ما استمتعوا به فى حياتهم ، فى تصورهم. أو لو وازنوا آنئذ بين العذاب اللاحق بهم .. والمتعة التى حصلوا عليها ، رغم طول الأجل على استمتاعهم بها : لرأوا : أن وقت المتعة لم يزد عن جزء واحد من نهار . فالمتعة لاشىء ، بجانب العذاب الذى ينزل بهم) .

« بلاغ ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون »(وعقاب الله بالهلاك لايكون إلا لفاسق فى كفره . وهؤلاء فاسقون فى كفرهم . أى خارجون عن حدود المنطق والواقع فى معارضتهم . ومن أجل ذلك يتعين الصبر وعدم القلق . فمصيرهم معروف .. وهلاكهم لاشك فيه)(١) .

وتأتى المرحلة الثانية فى موقف المؤمنين من الأعداء الماديين ، أو المشركين . وهى مرحلة الإذن للمؤمنين بأن يباشروا : رد العدوان بمثله . وهذا الإذن أمارة على أن قوة المجتمع المعنوية والعددية قد أصبحت ملحوظة ، على الأقل بين المؤمنين أنفسهم . ولكن مع الإذن بمباشرة العدوان : فإن الآية نفسها التى تصرح بهذا الإذن ، تعقب فى نهايتها بإيثار العفو والصفح : الأمر الذى يدل على أن قوة المجتمع مهما كانت ملحوظة إذ ذاك : فإنها تقصر عن الاستمرار فى رد العدوان ، لو باشر الأعداء عدوانهم على المؤمنين فى غير انقطاع . يقول الله تعالى فى سورة الشورى :

« وجزاء سيئة : سيئة مثلها (أى يجب أن يلتزم المثل فى رد السيئة والعدوان ، كمبدأ أساسى من مبادىء المجتمع فى صلته بأعدائه) ،

« فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله(ولكن مع إتخاذ هذا المبدأ كقاعدة أساسية : فإن من صفح وتجاوز عن أسباب الخصومة فله جزاؤه عند الله جزاء حسناً) إن الله لايحب الظالمين (ولكن إذا طلب الصفح والتجاوز عن أسباب الخصومة فليس معنى ذلك أن الله قد رضى عن مباشرة السيئة والاعتداء ، من المسيئين والمعتدين . فالله مع ذلك لم يزل : غير راض عن الظالمين والمعتدين بحال) .

« ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل.إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (ومع ذلك لو باشر المظلوم رد الاعتداء باعتداء مثله فليس مذنباً أمام الله فى مباشرته

---

(١) الأحقاف : ٣٥ .

السيئة وانتصاره على من أساء إليه . ولكن المذنب هو ذلك الذى يبدأ بالظلم والعدوان بغير حق ، على الآخرين . ففوق أنه يناله ممن اعتدى عليه : ما يستحقه من رد عدوانه : فإن له فى الآخرة عذاب أليم) .

« **ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور** »(ورغم أن ردالاعتداء بمثله : يصور قانوناً عاماً للمجتمع .. ورغم أن مباشرة رد الاعتداء لا يحمل إثماًأمام الله : فإن الصبر والتحمل على الإيذاء .. والصفح والتجاوز عن عوامل الإساءة ، لم يزل من المهام الإنسانية التى لايقوى عليهاإلاصاحب عزم وإيمان قوى . وأصحاب العزم والإيمان هم فى نهاية المطاف مع أعدائهم : الناجحون والمنتصرون عليهم) (١) .

ـــ وإذا طلب إلى المؤمنين فى المرحلة الأولى فى بناء مجتمعهم : أن يصفحوا عن أعدائهم من الماديين الوثنيين : فى استهزائهم وسخريتهم منهم.. وأن يصبروا على ما يقع منهم من إيذاء لهم : فإنه فى الوقت نفسه يطلب إليهم كذلك : أن يدعوهم إلى طرح الشرك والوثنية ، والعودة إلى الوحدة فى الألوهية . أى يطلب إليهم : أن يكونوا إيجابيين معهم فى شأن الدعوة ، فى الوقت الذى يغضون فيه الطرف عن حماقاتهم . يقول الله تعالى فى أول سورة مدنية ، أى فى سورة البقرة ، أيضاً :

« **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ، والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** (إذ هذه النعم جميعها على الإنسان : من خلقه وخلق أجياله العديدين ، السابقين منهم ، واللاحقين .. ومن جعل الأرض معبدة للسكنى والحركة عليها .. والسماء مظلة لها .. وماء المطر ينزل عليها فيساعد على إخراج ألوان الثمرات المختلفة ، التى فيها معايش الناس وأرزاقهم .. من شأنها : أن توصل إلى الإيمان بالله وحده ، وطرح جميع أنداده) ،

---

(١) الشورى : ٤٠ - ٤٣ .

« **فلا تجعلوا لله أنداداً ، وأنتم تعلمون** » (أى لاتجعلوا لله شركاء له ، تدعون أنها متساوية معه فى استحقاق العبادة ، وأنتم تعلمون أن ماتجعلونه لله أنداداً : هو من صنعكم ، ومن تخيلكم وتصوركم أنتم . وليس له واقع فى الوجود : لا فى حياتكم ، ولا فى حياة غيركم . إن أوهامكم تنسج لكم أشباحاً تتخيلون : أنها تشارك الله فى وجوده ، وفى صفاته : من أصنام .. أو من منظمات وهيئات .. ومن أشخاص . وهى عاجزة تمام العجز ، حتى عن أن تحمى وجودها أو بقاءها) (١) .

وفى دعوة المؤمنين ، أعداءهم من الماديين ، إلى الوحدة فى الألوهية : يسلكون معهم طريق الموضوعية فى الإقناع . فلا يجنحون إلى إكراه وحمل لهم فى صورة ما : على قبول مايدعون إليه : « **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم** »(٢) . ولا ينالون مما يدعونهم شركاء لله : « **ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدواً بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون** »(٣) . وإنما يتلون ما تدعوا إليه آيات القرآن الكريم ، وما تسوقه من دلائل وشواهد مادية تمس حياة الإنسان : على وحدانيته سبحانه ، فى الخلق والعبودية .

. ومع طلب الصفح .. والصبر فى معاملة الماديين : فإن طلب ذلك من المؤمنين كان مقروناً بطلب آخر . وهو الحيطة منهم ، وعدم اتخاذهم أصدقاء ، أو أولياء .. وتحولت الحيطة منهم فى النهاية إلى عدم الثقة فيهم .

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران ، وهى السورة الثالثة فى الوحى المدنى :

« **لايتخذ المؤمنون : الكافرون أولياء من دون المؤمنين** (أى لايؤثر المؤمنون : الكافرين بالصداقة والولاء ، على المؤمنين) ،

---

(١) البقرة : ٢١ - ٢٢ (٢) البقرة : ٢٥٦
(٣) الأنعام ١٠٨

« **ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء** (فهو بعيد كل البعد عن صلته بالله) ،

« **إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير** » (أى إلا أن تتجنبوا خطرهم . عندئذ فقط يجوز أن لاتكون بينكم وبينهم قطيعة . وعلى كل مهما كان : لاتؤثروهم بالولاء على إخوانكم المؤمنين. فالله ينذركم عقابه . وهو وحده الذى ترجعون إليه فى مصيركم وانتهاء حياتكم) (١) .

ومنهج القرآن فى تنبيه المؤمنين هنا إلى اتخاذ الحيطة من أعدائهم الماديين : يوحى بمراحل بشأن هذه الحيطة ، كشأنه فى مجالات أخرى . ففى آية آل عمران السابقة لايحذر المؤمنين من ولائهم لهؤلاء الأعداء ، على الإطلاق . وإنما يحذر المؤمنين فقط من إيثار هؤلاء بالولاء ، دون من عداهم من المؤمنين فى المجتمع . ومعنى ذلك أنه يجوز أن تكون هناك علاقة غير متنافرة مع هؤلاء الأعداء ، ولكن وراء علاقة الولاء التى يجب أن تتم بين المؤمنين بعضهم مع بعض : « **لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** » . وفى الوقت نفسه لايمانع : أن تكون علاقة المؤمنين بأعدائهم الماديين أكثر إنسجاماً ، إذا دعت ضرورة اتقاء أخطارهم : « **إلا أن تتقوا منهم تقاة** » .

فموقف الحيطة والحذر من الأعداء الماديين هنا : فيه مرونة . ويعتبر بذلك بداية لموقف المؤمنين حيالهم . فالمطلوب أن لايؤثروا فحسب : الكافرين بالولاء ، على إخوانهم المؤمنين .. وأن يطرحوا هذا الموقف جانباً ، عندما يرون وجوب اتقاء ضررهم وأخطارهم .

تدرج هذا الموقف إلى حيطة غير مشروطة . أى أنه طلب إلى المؤمنين : أن لايلقوا بولائهم إلى أعدائهم الماديين ، على الإطلاق ، وفى

---

(١) آل عمران : ٢٨

أى وقت وظرف . وهنا يذكر القرآن م طلب هذا الموقف الجديد : الأسباب التى تبرره ، كى تتحول العلاقات النفسية السابقة إلى قطيعة بين الطرفين . وبهذا ينجوا المؤمنون حقيقة من خطر أعدائهم . فسورة الممتحنة — وهى السورة الخامسة فى الوحى المدنى — تقول فى بدايتها ، فى آيتين من آياتها :

« **ياأيها الذين آمنوا : لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ،**

« **يخرجون الرسول وإياكم : أن تؤمنوا بالله ربكم** (أى هؤلاء الأعداء فوق أنهم كفروا بالقرآن — وهو الحق من عند الله — فقد أخرجوا الرسول عليه السلام وصحابته من ديارهم بمكة ، فهاجروا منها إلى المدينة . وذلك بسبب أنهم أعلنوا الإيمان بالله . وهذا يقتضى منكم : أن لاتكون بينكم وبينهم صلة ولاء على الإطلاق .. ولا علاقة مودة فى أية صورة) **إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى** (أى إذا كان خروجكم من مكة هو من أجل المحافظة حقاً على الإيمان ورسالته .. وقصداً إلى رضاء الله وحده : فإنه يتعين عليكم وضع حد للصلة الطيبة بهم : لا ولاء لهم ، ولا مودة معهم) **تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل** (وكما لاينبغى أن يكون لكم ولاء لهم .. ومودة تلقون بها إليهم : كذلك لاينبغى أن تسروا إليهم بالمودة ، فى خفاء وفى غير علن . ليس لأن الله فقط يعلم ظاهركم وباطنكم ، وما أخفيتم وأعلنتم . ولكن لأن المودة إليهم ، إن فى السر أو فى العلن : ضارة بكم ومؤدية فى النهاية إلى ضلالكم وحيرتكم) ،

« **إن يثقفوكم** (أى إن يجدونكم ويلقوكم) **يكونوا لكم أعداء** (أى تظهر عداوتهم لكم) **ويبسطوا إليكم أيديهم ، وألسنتهم بالسوء** (وعندئذ ينالون منكم باليد ، أو باللسان .. يضربونكم ، **ويتقولون**

عليكم بالسوء) **وودوا لو تكفرون** » (فهم لايتخلون عن عداوتكم ، ولا عن محاولتهم إرجاعكم إلى وثنيتهم وتبعيتهم من جديد . وبذلك ينقوض مجتمعكم وتعودون إلى جاهليتكم) (١) .

١ — فتنهى هاتان الآيتان عن الولاء والمودة من جانب المؤمنين على الإطلاق إلى أعدائهم الماديين : « **لاتتخذوا عدوى وعدوكم : أولياء ، تلقون إليهم بالمودة** » : سراً ، أوعلناً .

٢ — وتعللان هذا النهى بالباعث القوى لدى هؤلاء الأعداء ، وهو : أنهم عندما يتمكنون من المؤمنين يسيئون إليهم بالجارحة وباللسان معاً . وذلك لحقدهم على خروج المؤمنين عن تبعيتهم . ومن أجل ذلك لايفتأون يحاولون : أن يعيدوهم إلى زعامتهم فى مجتمعهم الجاهلى من جديد : « **إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون** » .

وهذه الحيطة غير المشروطة ، أو الحيطة المطلقة فى عدم ولاء المؤمنين لأعدائهم الماديين الوثنيين فى منهج القرآن طلبت من المؤمنين ، بعد هجرتهم من مكة « **إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى** » أى بعد أن أصبحوا أكثر حرية .. وأكثر قوة عددية .. وإيمانية .

وجاءت سورة المجادلة — وهى السورة التاسعة عشرة فى ترتيب الوحى المدنى ، بعد آل عمران .. والممتحنة — فأعلنت على سبيل الجزم والتأكيد : أنه لايجتمع إيمان بالله مع ولاء لمادى وثنى فى شخص واحد . فقالت :

« **لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر : يوادون من حاد الله ورسوله** (والذى يحاد الله هو من يحاربه ، ويصد عن سبيله . وهو ذلك المادى الملحد ، أو المشرك الوثنى) **ولو كانوا : آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ،**

---

(١) الممتحنة : ١ — ٢

« أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون »(١) .

ومعنى عدم اجتماع إيمان بالله مع ولاء لمادى وثنى : فى شخص واحد أنه يجب على المؤمن بالله أن يقطع ولاءه ومودته بهذا العدو الملحد إلى غير رجعة .. وأنه إذا وجد من هو بين المؤمنين على ولاء ومودة له فإنه فى واقع أمره بعيد عن الإيمان بالله .

وجاءت سورة التوبة — وهى آخر سورة فى الوحى المدنى ، نزلت فى شوال فى السنة التاسعة من الهجرة — بتهديد مجتمع المؤمنين بالفناء ، وبانتظار عقاب الله الذى لايكون إلا لفاسق : إن هذا المجتمع أقام علاقة ولاء أو مودة مع الأعداء الماديين ، ولو كان من بينهم الآباء ، والإخوان ، فتقول :

« يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا آباءكم ، وإخوانكم ، أولياء ، إن استحبوا الكفر على الإيمان ،

« ومن يتولهم منكم (أى ومن يواليهم منكم أيها المؤمنون) فأولئك هم الظالمون (لأنفسهم ولمجتمعهم) .

« قل : إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ،

« وأموال اقترفتموها ،

« وتجارة تخشون كسادها ،

« ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله (أى من طاعة الله وطاعة رسوله) وجهاد فى سبيله ، فتربصوا (أى فارتقبوا وانتظروا)

---

(١) المجادلة : ٢٢

حتى يأتى الله بأمره (أى بعقابه لكم . وهو زوال مجتمعكم فى دنياكم .. وعذابه لكم فى آخرتكم) **والله لا يهدى القوم الفاسقين**»(أى أنكم عندما تلقون بالولاء والمودة إلى هؤلاء الماديين الوثنيين ، ولو كانوا ذوى قرابة منكم : تكونون قد خرجتم من طاعه الله ، خروجاً بيناً واضحاً . ومن يخرج عن طاعة الله على هذا النحو لايهديه الله إلى الصراط السوى . ومصيره بعد الضلال والحيرة : مذلته وهوانه على نفسه وعلى غيره) (١).

وما جاء فى سورة التوبة هنا لاينهى فقط عن الولاء والمودة للماديين الوثنيين نهياً قاطعاً . وإنما يجعل الولاء إليهم إن كانوا ذوى قربى أمارة على التمسك بالدنيا وإيثارها على الإيمان بالله ، كتلك الأمارات الأخرى من أماراتها من أموال .. وتجارة .. ومساكن ، لو أثرت عن طاعة الله ورسوله ، فهى من الدلائل على الخروج عن طاعة الله .

ــ ويتطور طلب عدم الولاء والمودة من المؤمنين للماديين الوثنيين ، فى منهج القرآن الكريم .. إلى طلب عدم الثقة بهم ، وفى عهودهم .. وإنذارهم الإنذار الأخير . فتذكر سورة التوبة إعلاناً من الله ورسوله يوم الحج الأكبر وهو يوم العيد أو يوم عرفة ، إلى الناس جميعاً تعلنهم فيه : إنهاء كل عهد مع المشركين الماديين بعد أن نكثوا بعهد الصلح بالحديبية .. مع إعطائهم مهلة أربعة أشهر يدبرون فيها أمرهم . فتقول :

« **وآذان من الله ورسوله إلى الناس** (أى إلى العالم كله) **يوم الحج الأكبر** (قيل : إنه يوم العيد . إذ روى : أنه عليه السلام وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع . وقيل إنه يوم الوقوف بعرفة) : **أن الله برىء من المشركين ورسوله** (أى أن الله ورسوله ينهيان العهد مع هؤلاء الماديين بعد أن ألغوا من جانبهم عهد الحديبية ، بعد مهلة أربعة أشهر تعطى لهم يتدبرون فيها الأمر . وقد جاء أول السورة بهذه المهلة فى قوله تعالى :

---

(١) التوبة : ٢٣ — ٢٤

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر (أى لكم حرية الحركة طول هذه المدة) ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين » (١) ،

« فان تبتم فهو خير لكم (أى فان آمنتم بالله ، وعدتم إلى وحدة الألوهية وامتثلتم إلى ما جاء به الرسول عليه السلام : فهو خير لكم) وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله (ولكن إن أعرضتم وأصررتم على الكفر والمادية : فيجب أن يكون فى علمكم منذ الآن : أنكم ستلقون جزاءكم من الهزيمة وانهيار مجتمعكم فى دنياكم . إذ أنكم لاتستطيعون أن تعجزوا الله فى قدرته وفيما يريده) وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » (ومع انهيار مجتمعكم فإن عذابكم فى الآخرة أمر محقق . وهو عذاب رهيب ، وأليم فى الوقت نفسه) (٢) .

فمع إعلان عدم الالتزام بمعاهدة الماديين فى صلح الحديبية : أصبح معروفاً لديهم : أنهم معرضون منذ الآن للقتال والهزيمة من جانب المؤمنين إن هم آثروا البقاء على معارضتهم وكفرهم : « فان تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله » .

وهكذا : فى منهج القرآن الكريم فى شئون العلاقات مع الأعداء يتطور موقف المؤمنين من المشركين الوثنيين أو الماديين ، حسبما طلب منهم :

من الصبر على إساءتهم والعفو عنها ..

إلى عدم إيثارهم بالولاء ، دون المؤمنين ..

إلى عدم الولاء والمودة لهم على الإطلاق ..

إلى استحالة التقاء إيمان بالله مع مودة لهؤلاء الماديين فى شخص واحد..

إلى عدم الثقة فيهم وفى عهودهم بعد إلغائهم عهد الحديبية ..

---

(١) التوبة : ١ (٢) التوبة : ٣

إلى تخييرهم منذ الآن بين قبول الإسلام، أو انتظار الهزيمة فى قتال مرير لا يهدأ ، حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ..

وتتطور دعوتهم إلى الإيمان : فى غير إكراه .. إلى إنذارهم بتقويض مجتمعهم ، إن لم يصبحوا فى عداد المؤمنين .

هذه المواقف المتطورة تشير أيضاً إلى وضع المجتمع المتطور :

فمجتمع المؤمنين بمكة كان ضعيف العدد والعدة . ولذا طلب منه الصبر والصفح عن الإساءة ..

ومجتمع المهاجرين والأنصار بيثرب كان مجتمعاً متفوقاً فى عدده وعدته على سابقه . ولذا كان موقفه : عدم الولاء على الإطلاق لأعدائهم الماديين.

ومجتمع فتح مكة ظهر تفوقه عملياً على هؤلاء الأعداء الماديين . ولذا جعل مطلبه من هؤلاء : إما الإسلام ، أو الإنذار بالقتال ، بعد إعلان إلغاء معاهدة صلح الحديبية التى كانت قائمة معهم على رءوس الأشهاد ، يوم الحج الأكبر . وقد ابتدأوا أهم بإلغائها .

وكانت الخطوة التالية من جانب المؤمنين هى فتح مكة . وعندئذ أعلن إلغاؤها من جانبهم .

وتستمر سورة التوبة فى تبرير الموقف الأخير الذى يجب أن يقفه المؤمنون من أعدائهم الماديين الوثنيين يوم تكون لهم القدرة . فتقول :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله ، وعند رسوله ؟ (أى أن هؤلاء الماديين لايستحقون الوفاء بما عاهدوا عليه ، من جانب الله ومن جانب رسوله . فإلغاء عهدهم لاينطوى على إثم أمام الله . بل المحافظة عليه يسيء للمؤمنين . لأن هؤلاء الأعداء يتربصون السوء بالمؤمنين .. وليس لهم عهد ولا ذمة ، مهما أكدوا العهود والمواثيق . فقد أملوا بعض شروطهم على المؤمنين فى صلح الحديبية قبل الفتح . ومع ذلك لم يلبثوا حتى نقضوها

بالاعتداء على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت خزاعة حليفة للمؤمنين . فاعتبر المؤمنون الاعتداء على خزاعة من جانب المكيين نقضاً لتلك المعاهدة معهم) ،

« **إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** (وهم بنو حمزة ــ وبنو كنانه) **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** (أى لاتنقضوا معاهدتهم بعد مضى أربعة أشهر ، كما أنذرتم الآخرين . ولكن يجب أن تتموا لهم معاهدتهم إلى مدتها ـ ويقال : إنه كان قد بقى منها تسعة أشهر ـ طالما لاينقضون العهد معكم) **إن الله يحب المتقين** .

« **كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم : إلا ، ولا ذمة** (إنه من العجب حقاً : أن لاتنقضوا العهد معهم . لأنهم لوتمكنوا منكم لايرعون فى معاملتكم : عهداً ولا ميثاقاً) **يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون** (إنهم فحسب يشعرونكم بالرضى عنكم بلسانهم . أما قلوبهم فهى منطوية على الحقد والغل لكم . وذلك يرجع إلى أن كثرتهم قد خرجت خروجاً واضحاً فى الكفر والعصيان والتحدى . فقد باعوا كتاب الله ، وأعرضوا عنه ، واستروا فى كفرهم به : لقاء ثمن قليل ، وهو الإبقاء على زعامتهم فى مكة . وفى سبيل المحافظة على هذه الزعامة يصدون عن سبيل الله .. ويسلكون مسالك السوء ، حتى بعد فتح مكة) ،

« **لا يرقبون فى مؤمن إلا ، ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون** (وشأنهم مع المؤمنين ـ وليس فقط فى حال تمكنهم منهم ـ أنهم لايرعون فيهم عهداً ولا ميثاقاً . لأنهم دأبوا على الاعتداء عليهم ، وعلى رسالة الله بينهم فهم لا يؤمن جانبهم بحال) .

« **فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة .. فاخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون** (والموقف الذى يجب أن يتخذ الآن حيالهم هو : أنهم إذا عادوا إلى الله ـ وأمارة عودتهم إليه أمران : إقامة الصلاة .. وإخرج الزكاة ـ فهم إخوان لكم فى الدين)

« وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون (وإذا لم يعودوا إلى دين الله .. واستمروا على ماهم عليه : من نقض العهود والمواثيق .. والطعن فى دين الله ، والصد عن سبيله ، كشأنهم دائماً .. أى اذا لم يغيروا من طبيعتهم وعاداتهم عندئذ : تجب مقاتلتهم ، ولايكتفى بإنذارهم بالقتال . وعندما تقاتلونهم تقاتلون زعماءهم والمستكبرين فيهم . لأن هؤلاء هو الذين يحرضون على نقض العهود والمواثيق ، ولا يلتزمون بها . وربما قتالهم ينهى وضع المادية وأثرها . إذ التابعون لهؤلاء الزعماء والمستكبرين لايرون حرجاً فى الانتقال من مجتمعهم الجاهلى الفاسد ، إلى المجتمع الإنسانى ، صاحب القيم العليا) .

« ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم (بنقض عهد الحديبية) وهموا بإخراج الرسول (قبل الهجرة) وهم بدأوكم أول مرة (بالعدوان) أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم .

« ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم » (١)

والموقف الأخير إذن الذى يجب أن يقفه المؤمنون من هؤلاء الأعداء الماديين : لايتبلور فحسب فى إلغاء العهود القائمة ، بعد نقضها من جانبهم . ولا فى إنذارهم وتخييرهم بين الإسلام والقتال . وإنما ينتهى بطلب القتال لأئمتهم أولا : « فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » :

وأسباب هذا الموقف تعود إلى :

أولا : أن الماديين لاعهد لهم ، حسبما تعودوا ، وجبلت عليه طبيعتهم : « إنهم لا أيمان لهم » .

---

(١) التوبة : ٧ – ١٥ .

ثانياً : وأنهم يضمرون العداء الشديد للمؤمنين ، وفقط يرضونهم بالقول ، والوعد: **« يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون »** ،

ثالثاً : وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين ليقضون عليهم ، ولم يراعوا فى القضاء عليهم : عهداً قطعوه لهم على أنفسهم ، بالأمان أو بالصداقة معهم : **« كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم : إلا ، ولا ذمة »** ،

رابعاً : وأن نواياهم السيئة بالنسبة للمؤمنين تظهر جلية فى محنة هؤلاء فيوم أن كان المسلمون بمكة قلة هموا بإخراج الرسول منها . ويوم أن أملوا عليهم معاهدة صلح الحديبية نقضوها بالاعتداء على حلفائهم ، ظناً منهم أن المسلمين لم يصبحوا بعد فى مركز القوة : **ألا تقاتلون قوماً « نكثوا أيمانهم ، من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم »** .

وهذا الموقف الذى يحدده القرآن الآن ضد الماديين : **ليس خاصاً** بمشركى مكة : **« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا: أن الله مع المتقين »** (١) . وإنما هو ضد كل مجتمع مادى ، فى أى عهد من عهود التاريخ . إذ لم يكن مشركو مكة أصحاب نزعة فريدة فى حياتهم ، فى تاريخ البشرية ، فجاء ما فى القرآن هنا علاجاً ، أو قضاء على هذه النزعة فيهم . وإنما حديث القرآن هو حديث عن الإنسان : عن هذا الإنسان الذى يهتدى بهداية الله عن طريق الإيمان به ..وعن ذاك الإنسان الآخر الذى يكفر به ، وبالقيم العليا فى حياة الإنسان، ولا يؤمن إلا بالعلاقات المادية والمبادلات النفعية والمصلحية وحدها .

وهذا الإنسان .. وذاك الآخر : يوجدان فى تاريخ البشرية .. إلى يوم البعث . كما وجدا على عهد الرسالات الإلهية ، حتى رسول الله عليه الصلاة والسلام : **« ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه (من القرآن) حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم »** (٢)

---

(١) التوبة : ٣٦ — (٢) الحج : ٥٥

ـــ والقتال الذى يطلبه القرآن الآن بعد فتح مكة ضد الوثنيين الماديين فى سورة التوبة : قد باشره المسلمون من قبل فى لقائهم مع هؤلاء الأعداء. ولكن مباشرة المسلمين لقتال أعدائهم فى الغزوات قبل الفتح : كان رداً لاعتداء هؤلاء عليهم ، وقد أذن لهم إذناً عاماً برد الاعتداء ، إذا كان هذا الاعتداء فى أى وقت فى صورة قتال . فقد جاءت سورة الحج ـ وهى السورة السابعة عشرة فى ترتيب الوحى المدنى ، أى قبل سورة التوبة بعشر سور ـ بهذا الإذن فى قول الله تعالى :

« **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** (أى أذن للذين اعتدى عليهم بالقتل ظلما وعدوانا : بأن يباشروا القتال ، ضد أعدائهم لرد اعتدائهم عليهم) **وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا : ربنا الله** (وهؤلاء الذين ظلموا بالعدوان عليهم من جانب الماديين الوثنيين : كان الاعتداء عليهم بسبب إيمانهم بالله . فأخرجوا أولا من ديارهم بغير حق ، وهاجروا منها إلى المدينة . وحرمان أى إنسان من الإقامة فى مسكنه . . وفى موطنه هو تعذيب له ، وإنكار لذاتيته . فهو قتل نفسى ، ونفى مادى) .

« **ولولا دفع الله الناس : بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع** (معابد النصارى) **وبيع** (وهى أمكنة رهبانهم) **وصلوات** (معابد اليهود) **ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً** ،

« **ولينصرن الله من ينصره** (وهذا وعد من الله سبحانه بنصره للمؤمنين به حقاً ، المطيعين لما جاء فى رسالته . لايبغون من الدنيا إلاسبيل الله وحده) **إن الله لقوى عزيز** (وسبحانه قادر على الوفاء بما يعد . فهو صاحب القوة وحده .. وهو كذلك العزيز الذى لاينال من قدرته موجود آخر) .

« **الذين إن مكناهم فى الأرض، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ،وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر** (ومن يعد الله بنصرهم : هم هؤلاء الذين إن مكنوا فى الأرض وتركوا فيها من غير مناوأة أو اضطهاد : داوموا على

الصلاة ، تعبيراً عن صلتهم بالله سبحانه . . وأخرجوا الزكاة ، عنواناً على أنهم يسودون أنفسهم وشهواتهم ، ويعيشون لدين الله وحده ، وليس لمال أوجاه . . وأمروا غيرهم بالمعروف وما فيه خير للناس وكانوا فيه قدوة عملية . . ونهوا عن المنكر والقبائح والفحشاء وكان كذلك فى تجنبها قدوة للآخرين . والله إذن لا يعد بنصر من يسعى إلى سلطة أو جاه . . أو إلى توسع وزعامة دنيوية) **ولله عاقبة الأمور** »(١) .

والإذن بالقتال هنا للمؤمنين مشروط إذاً بالاعتداء على جماعتهم من هؤلاء الماديين . أما القتال الذى انتهى منهج القرآن إلى طلبه من المؤمنين أخيراً بعد قوتهم ، بديلا عن الصبر والصفح أول الأمر وهم ضعفاء : **فإنه** لوقاية دين الله ، وحمايته من أعدائه الألداء الدائمين وهم هؤلاء الماديون وقد جاء توضيح الأمرين فى قول الله تعالى :

« **وقاتلوا فى سبيل الله** (وليس فى سبيل دنيا . أو سبيل جاه ومتعة . وليس هناك إذن قتال فى القرآن من أجل غزو ، أو توسع استعمارى) **الذين يقاتلونكم** (وهم هؤلاء الماديون الذين يضمرون لكم كل سوء) **ولا تعتدوا** (أى ولا تتجاوزوا حدود رد الاعتداء عليكم) **إن الله لا يحب المعتدين** .

« **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** (أى وجدتموهم فى أى مكان ، وفى أى وقت) **وأخرجوهم من حيث أخرجوكم** (أى وعاملوهم كما عاملوكم من الإخراج من ديارهم) .

«**والفتنة أشد من القتل** (أى وما يثيرونه من بلبلة واضطراب فى صفوفكم سبب كاف كذلك فى قتالهم . بل ذلك سبب أقوى فى مقاتلتهم) .

« **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام** (احتراماً لحرمته) **حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله**

---

(١) الحج : ٣٩ - ٤١

غفور رحيم (أى فإن أوقفوا اعتداءهم عليكم فيجب أن توقفوا قتالهم كذلك . إذ الله ـــ وهو صاحب الكون كله ـــ من صفاته الغفران والرحمة فاقتدوا به سبحانه . وإلى هنا : طلب قتال الأعداء الماديين إنما هو لحماية المجتمع المؤمن ووقايته من الفناء والضياع . بدليل أن على المؤمنين هنا أن يتوقفوا عن القتال ، إذا توقف أعداؤهم عنه) .

« **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة** (أى بلبلة واضطراب) **ويكون الدين لله** (أى وحتى لايكون هناك مادى يشرك بالله أو ينكره . . وبالتالى حتى لايكون هناك مصدر للفتنة ، وهو اتجاه المادية فى الحياة . وهذا الأمر بالقتال هنا هو لحماية دين الله) **فان انتهوا** (عن المادية والشرك ، وأصبحوا لكم إخواناً فى الإيمان) **فلا عدوان إلا على الظالمين** »(١) (أى فلا قتال إلا لمعتد : كان من كان ، ولومن المؤمنين : « **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** »(٢)

وإذن : القتال الذى يريده القرآن كموقف ضد الماديين هو لوقاية الإيمان ضد عدوان هؤلاء المبيت ، بعد أن اتضحت طبائعهم ، وانكشفت نواياهم فهذا موقف حيطة ووقاية .. وذاك موقف رد لاعتداء .

* * *

فى صلة المؤمنين بأهل الكتاب :

ـــ المفروض أنه كان يجب أن يقف اليهود والنصارى ـــ وهم أهل كتاب ـــ من القرآن .. والرسول عليه السلام : موقفاً آخر ، يختلف عن موقف الماديين المنكرين للألوهية ، واليوم الآخر . المفروض أنه طالما كان القرآن مصدقاً لما بين أيديهم من كتاب من جانب . . ومعلناً من جانب آخر : أمره إلى الرسول عليه السلام بالإيمان بجميع الرسل بقوله : « **قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا** (وهو القرآن) **وما أنزل على ابراهيم ،**

---

(١) البقرة : ١٩٠ – ١٩٣ (٢) الحجرات :

واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (١) .. طالما كان هذا . وذاك .. وطالما كانت أيضاً دعوة القرآن إلى اليهود والنصارى : هى دعوة التساوى بينهم وبين المؤمنين فى الوحدة فى الألوهية ، وتجنب الشرك والوثنية ، والابتعاد عن تأليه البشر على نحو مايدعو إليه القرآن فى قول الله تعالى : « **قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولانشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون** »(٢) .. طالما كان هذا كله فليس ما يمنع أهل الكتاب السابقين من يهود ، ونصارى ، من الإيمان بالقرآن ، سوى تشبث الزعماء فيهم بزعامتهم الدينية الخاصة .. وسوى منافعهم المادية والمظهرية من هذه الزعامة .

وقد واجه القرآن هؤلاء الزعماء بموقفهم هذا ، فى قول الله تعالى :

« **أتأمرون الناس بالبر** (أى باتباع الحق ، وعمل الخير) ، **وتنسون أنفسكم** (أى فلا تتبعون أنتم الحق ، ولا تصنعون الخير . وذلك بعدم إيمانكم بالقرآن . والخطاب موجه إلى زعماء بنى اسرائيل) **وأنتم تتلون الكتاب** (رغم أنكم تقرأون ما فى التوراة والإنجيل) **أفلا تعقلون ! ؟**

« **واستعينوا بالصبر والصلاة** (وأنتم لو استعنتم بالصبر فى تركـكم جاه الزعامة ، عندما تؤمنون بالقرآن وبرسوله . وبالصلاة فى صلتكم بالله : لسرتم إلى الإيمان بهما فى غير مشقة) .

« **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون : أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم إليه راجعون** » (ولكن تركـكم الزعامة ، وتحولكم إلى الإيمان بالقرآن وبرسوله ، ومشاركتكم المؤمنين فى الصلاة إخواناً لهم : يشق على نفوس الزعماء فيكم ، دون التابعين لهم إذ أن هؤلاء التابعين لم يتأثروا بالاتجاه المادى

---

(١) آل عمران : ٨٤ (٢) آل عمران : ٦٤

الذى تأثر به زعماؤهم ، فحرصوا على الزعامة وجاه الحياة الدنيا . ومن لم يتأثر بالاتجاه المادى لاينكر لقاء الله فى الآخرة . بل ينتظره ، كأمر مرجو) (١) .

ـ دعوة أهل الكتاب إلى طرح المعارضة :

وكانت الدعوة إلى أهل الكتاب من جانب المؤمنين هى أن يطرحوا المعارضة . وترتكز هذه الدعوة على أمرين :

الأمر الأول : تذكيرهم بنعم الله عليهم ،

الأمر الثانى : إعلان المساواة بينهم وبين المؤمنين فى الجزاء ، إن سلكوا جميعاً المسلك المشترك فى الإيمان بالله .

فى الأمر الأول جاءت سورة البقرة بقول الله تعالى :

«**يا بنى إسرائيل : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** (وهى نعمة الرسالة . . ونعمة النجاة من فرعون وملائه . . ونعمة استيطان الأرض المباركة . .) **وأوفوا بعهدى** » (٢) (وقد أخذ العهد عليهم على نحو ماتحكيه بعض آيات البقرة فى قول الله تعالى : « **واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل : لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ، وذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ، ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك**

---

(١) البقرة : ٤٤ – ٤٦ .　　(٢) البقرة : ٤٠

منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون . ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم ، فقليلا ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله (القرآن) مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا (أى يستنصرون ويطلبون النصر على الكافرين الماديين) فلما جاءهم ما عرفوا (وهو القرآن) كفروا به (وبكفرهم بالقرآن أصبحوا فى جانب الكافرين الماديين ، خصومهم بالأمس) فلعنة الله على الكافرين » (جميعاً : من ماديين . . وأهل كتاب معارضين)(١) ..

.. « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم . وأوفوا بعهدى : أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون .

« وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ،

« ولا تشتروا بآياتى ثمناً قيلا (وهو الزعامة والرياسة فى قومكم) وإياى فاتقون .

« ولا تلبسوا الحق بالباطل (أى تخلطوا الأمرين معاً فلا يعرف الحق) وتكتموا الحق وأنتم تعلمون (فلا تظهروه فيما تقولون وتتحدثون مع علمكم بأنه الحق) .

« وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة (فهما فريضتا : الإيمان . . وأمارتا التحول من المادية إلى الروحية الإنسانية) واركعوا مع الراكعين » (أى كونوا فى صفوف المسلمين) (٢)

---

(١) البقرة : ٨٣ - ٨٩ (٢) البقرة : ٤٠ - ٤٣

وفى الأمر الثانى يعلن القرآن : « **إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين** (وهم عباد الكواكب بين الأشوريين والنبطيين) : **من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً** (أى أدى عبادة الله) **فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون** » (١) .

فهناك إذن مايدعو اليهود والنصارى — وهم أهل الكتاب السابقون — للإيمان بالقرآن وعدم معارضته . فهناك العهد الذى أعطوه لله بالبقاء على الإيمان به ، وعدم الجنوح إلى إتجاه المادية فى الحياة . وهناك ضمان المساواة مع المؤمنين فى جزاء الله ؛ وفى تأمينهم من الخوف ، والأسى فى حياتهم ، بسبب السلوك السوى عندئذ .

ولأن موقف أهل الكتاب من القرآن ظل موقف معارضة وليس موقف استجابة للإيمان به : لم يكونوا إذن مؤمنين حقاً بما جاءهم من التوراة ، والإنجيل :

« **قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة ، والإنجيل** (أى حتى تؤمنوا ، وتعملوا بما جاء فيهما) **وما أنزل إليكم من ربكم** (وحتى كذلك تؤمنوا وتعملوا بما أنزل الآن إليكم من ربكم ، وهو القرآن) .

« **وليزيدن كثيراً منهم : ما أنزل إليك من ربك ، طغياناً وكفراً** » (أى ولكن كان موقفهم من القرآن : أنهم لم يكفروا به فحسب . وإنما زادوا به عناداً ، وتصلباً فى زعامتهم ، وطغياناً وكفراً بما جاء إليهم هم . لأن موقفهم من القرآن ينعكس على موقفهم من التوراة ، والإنجيل. إذ أن كلا من الكتب الثلاثة يمثل رسالة واحدة ، وهى رسالة الألوهية فى استقامة البشر : فى اعتقادهم وسلوكهم)(٢) .

---

(١) البقرة : ٦٢ . (٢) المائدة : ٦٨ .

ولكى يتهم زعماء أهل الكتاب السابقين : القرآن بأنه ليس مصدقا لما بين يديه من كتاب الله قبله : أخذوا يغيرون ما بين أيديهم فينقلون أو يتحدثون عما يشاءون منه . . ويتركون ما يشاءون أن يتركوه . فما ذكروه هو كتاب الله فى نظرهم : : وما لم يذكروه ليس من كتاب الله فى ادعائهم . وبذلك بعدت الشقة بين القرآن من جانب ، وكتابهم من جانب آخر . ويشير إلى هذا التغيير : رد القرآن على المشركين الماديين فى طلبهم أن يكون الرسول من الملائكة ، وليس من البشر فى قوله تعالى ، فى آية مدنية فى سورة مكية — وهى سورة الأنعام ، أو السورة الخامسة والخمسون فى ترتيب الوحى المكى — فى قول الله تعالى :

« وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء
(أى عندما ادعوا : أن الله لم يختر من البشر رسولا .. فى معارضة الرسول عليه السلام — لم يكونوا مقدرين لله تمام التقدير فى أنه يعلم : أنهم يكذبون ، ويتجاهلون التاريخ . والخطاب للماديين المكيين) .

« قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، نوراً وهدى للناس؟
(ويكفى أن يسألوا عن طبيعة الرسول الذى أرسل بالكتاب إلى بنى إسرائيل : أليس هو موسى ؟ وأليس موسى إنساناً ؟ . وكان هؤلاء الماديون على علم بهذه الحقيقة ، لوجود اليهود بين عرب شبه الجزيرة . وهذه الحقيقة ذاتها وهى معلومة لهم تؤيد : أنهم كذبوا على الله عندما قالوا : إن الملائكة وحدها — وليس البشر — هى التى تنزل بالرسالة . وكتاب موسى كان هداية ونوراً للناس . ولكن هل بقى هداية ونوراً ؟ أم أن أحبار اليهود صنعوا به ما حجبوا هدايته ونوره على الناس ؟) .

« تجعلونه قراطيس : تبدونها ، وتخفون كثيراً» (١) (و لخطاب هنا لزعماء اليهود : يحملهم فيه مسئولية حجب هداية التوراة ، وحجب نورها عن الناس ، حتى ظهرت المادية من جديد وظهرت ظلماتها بين

---

(١) الأنعام : ٩١

بنى إسرائيل . ولذا كان لابد من رسالة محمد بن عبد الله لتضيء للناس من جديد : نور الله ، وتكشف عن هدايته ، على نحو ماجاء فى القرآن الكريم . والقرآن من أهدافه إذن : أن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون عن الحق ، كما أراده الله : « **إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** »(١) .

وما صنعه علماء اليهود فى التوراة حتى حجبوا نور الله فيها عن الناس ، هو : أنهم لم يعرضوا كل مافيها ، كما هو . وإنما ذكروا بعضاً مما فيها لأتباعهم ، ولم يذكروا البعض الآخر منها ، وهو كثير . وبذلك أصبحت لاتعطى الصورة الكاملة لهداية الله : « **تجعلونه قراطيس** (أى أجزاء وأقساماً) **تبدونها ، وتخفون كثيراً . وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل : الله** (أى هو الله الذى أنزل الكتاب على موسى لبنى إسرائيل . وهذا هو جواب السؤال السابق : « **قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** » . (أى قل ذلك فى مواجهة الماديين المكيين) **ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** » (أى واتركهم بعد ذلك مستمرين فى لغوهم بالباطل وفى أكاذيبهم) (٢) .

موقف الصفح . . والصبر :

ـــ ولأن موقف أهل الكتاب بالنسبة للمؤمنين الآن لايقل خطورة عن موقف الأعداء الماديين الوثنيين : « **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين : أن ينزل عليكم خير من ربكم** (وهو الرسالة) **والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** » (٣) . . بحيث أصبحوا يتمنون جميعاً أن يعود المؤمنون من جديد : كفاراً ، وأن يرجعوا إلى ماكانوا عليه من قبل فى المجتمع الجاهلى . . وبحيث أصبحوا أيضاً يطلقون ألسنتهم بالسوء فى شأن المؤمنين : كان من خطوات منهج القرآن : أن ينصح المؤمنين ،

---

(١) النمل : ٧٦ — ٧٧ .

(٢) الأنعام : ٩١ .

(٣) البقرة : ١٠٥ .

وهم فى بداية تكوين مجتمعهم ، باتخاذ موقف الصفح . والصبر : على ما فى صدور أهل الكتاب من حقد .. وعلى ما يشيعونه بألسنتهم من سوء. فجاءت سورة البقرة تطلب ذلك : فى قول الله تعالى :

« **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً : حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق** (فى أن محمد صلى الله عليه وسلم : رسول الله .. وفى أن القرآن كتابه المنزل . وهذه الحقيقة ستقلقهم ، إن لم تقوض زعامتهم . لأنهم يعيشون الآن على ما فى أيديهم . وما فى أيديهم من رسالة إلهية لم تعد جديرة بالاعتبار فى شأن الإنسانية ، بعد أن طرأ عليها من التغيير بصنيعهم : ماطرأ . فيهم بعد ظهور هذه الحقيقة يحسدون الرسول والمؤمنين معه ، على ما جاءه من فضل الله ، باختياره لرسالته)،

« **فاعفوا ، واصفحوا ، حتى يأتى الله بأمره** (أى وليكن موقفكم الآن هو الصفح والعفو عنهم .. إلى أن يأتى أمر الله بموقف آخر إزاءهم .. أو يأتى الله بأمره فى عذابهم فيزيل مجتمعهم فى الدنيا ، ويقوض زعامتهم ونفوذهم فى أتباعهم) ،

« **إن الله على كل شيء قدير** » (أى يستطيع من مركز القوة : أن يحدد مصير أى مجتمع .. ونهاية أى إنسان) (١) .

وتأتى سورة آل عمران فتقرن عمل أهل الكتاب ، بعمل الماديين ضد المؤمنين وتسوى بينهم ، وتطلب إلى هؤلاء المؤمنين : أن يستعينوا بالصبر والتقوى إزاء أذى الفريقين معاً . فيقول الله تعالى فى آية فيها :

« **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم** (أى يجب أن تترقبوا : ابتلاء الله لكم بالمال . . والعصبية . فإما أن تشكروا الله على نعمته عليكم فتنفقوا من المال فى سبيله . . وتوجهوا قوة العصبية فى الجهاد من أجل الدعوة . وإما أن تكونوا إزاء هذه النعمة كما كنتم من قبل : أشحاء النفوس بمالكم .. وكثيرو الاعتداء بقوة عصبيتكم على غيركم) ،

---

(١) البقرة : ١٠٩ .

« **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا : أذى كثيراً** (كما يجب أن تترقبوا : إيذاء متكرراً ، من أهل الكتاب.. والماديين ، على السواء ، بطرق أسماعكم من وقت لآخر . لأن أياً من الفريقين لا يهادنكم .. ولأن أياً منهما لايود وجودكم ، وإن كان لسبب يختلف فى ظاهره لدى فريق ، عنه لدى فريق آخر . فأهل الكتاب يخشون على زعامتهم الدينية .. والماديون يخشون على منفعتهم المادية . والحقيقة أن كلا منهما طالب دنيا ، عن طريق الرياسة فى أى شكل) ،

« **وإن تصبروا ، وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور** » (والذى ينجيكم من أذى هؤلاء .. وأولئكم : هو الصبر . . وتجنب الاعتداء والاحتكاك بأى من الفريقين .. والسير قدماً فى سبيل الدعوة والإيمان بها) (١) .

. . **الحذر ، والحيطة :**

ـــ وموقف الصفح والصبر إزاء أهل الكتاب لاينجح عملياً بالنسبة للمؤمنين إلا إذا صحبه موقف آخر منهم . وهو موقف الحيطة والحذر مما يقوله . . أو يصوره . . أو يفعله أولئكم الذين انقلبوا إلى أعداء ، وكان الأجدر بهم : أن يبقوا إخواناً متعاونين مع المؤمنين .

وجاء التحذير ـ حسب منهج القرآن ـــ أولا فى صورة غير مباشرة. أى فى صورة استبعاد : أن يؤمل فى إيمانهم حقاً برسالة القرآن . . وأن يلقوا إلى المؤمنين بقلوبهم وإخلاصهم . فتقول السورة الأولى فى الوحى المدنى :

« **أفتطمعون : أن يؤمنوا لكم ؟** (أى لاتؤملوا أيها المؤمنون فى أن يخلص إليكم أهل الكتاب ـــ وبالأخص هؤلاء المجاورون لكم من اليهود فى يثرب ـــ فى إيمانهم بالرسول وبكتابه) **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون** (وعدم الأمل

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .

فى إخلاصهم فى الإيمان : يعود إلى أنهم كانوا يسمعون من الرسول عليه السلام كلام الله ويفهمونه . ولكن إذا تحدثوا به حرفوه وأساءوا فى تأويله ، وهم يعلمون : أنهم يحرفونه ، فهم يرتكبون جريمة التحريف مع علم سابق ، وبعد فهم صحيح لما سمعوه . ومثل هؤلاء تجب الحيطة منهم) ،

« **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلاتعقلون** »

(وهناك سبب آخر يعود إلى عدم الأمل فيهم .. وفى وجوب اتخاذ الحذر منهم ، وهو : أنهم يخدعون المؤمنين فلا يعلنونهم بحقيقة أنفسهم ، وهى أنهم يعارضون الرسول عليه السلام وكتابه . ولكن يقولون لهم بألسنتهم : أنهم مؤمنون ، نفاقاً .. بينما هم بين بعضهم بعضاً يحذرون أنفسهم من قول الحق فيما سمعوه من الرسول ، خشية أن يتخذ ضدهم حجة عند الله . وهذا معناه : أنهم ينكرون الحق فيما أوحى بالقرآن ويستمرون فى كفرهم به. فهم مؤمنون فى العلن .. وكافرون فى الخفاء . والمنافق أو المخادع لا يؤمن جانبه . والعاقل هو من يحتاط منه ، ويرتاب فيه . إنهم يخفون الحق فى رسالة الرسول بتحريفه .. ويظهرون الإيمان ، خداعاً للمؤمنين) (١) .

ـ النهى عن الولاء لهم :

وكنتيجة لطلب الحذر والحيطة من أهل الكتاب ، بناء على عدم إخلاصهم ، وضعف الأمل فيهم : تأتى الخطوة الثانية فى منهج القرآن فى تطوير المجتمع . وهى خطوة النهى عن الولاء لهم ، والارتباط بهم ارتباط صداقة .. وثقة . فتقول السورة الثالثة فى الوحى المدنى ، وهى سورة آل عمران :

« **يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم** (أى ممن عداكم من غير المؤمنين . والمقصود بهم هنا : أهل الكتاب . والبطانة هى أهل السر ، والثقة : يوثق بمودتهم ، ويطمئن إليهم) ،

---

(١) البقرة ٧٥ – ٧٦ .

« **لايألونكم خبالا** (أى لايقصرون فى بث الفساد بينكم) ،

« **ودوا ما عنتم** (أى ويريدون عنتكم ومشقتكم فى الحياة .. لايريدونها يسراً ولا خيراً لكم) .

« **قد بدت البغضاء من أفواههم** (أى يتحسس الإنسان فى أحاديثهم عن المؤمنين ، رغم قدرتهم على التكتم والتخفى : بغضهم وكراهيتهم لهم) **وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ، إن كنتم تعقلون** (وماتطويه نفوسهم من الحقد ، والضغينة ، والكراهية على المؤمنين أكثر بكثير مما يظهر فى ثنايا كلامهم . والعاقل هو من يستفيد مما اتضح إليه من أمارات العدو ، والصديق) ،

« **ها أنتم أولاء تحبونهم ، ولايحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله** (وأنتم أيها المؤمنون فى وضعكم الحالى مع أهل الكتاب من اليهود حول المدينة : تميلون إليهم بقلوبكم ، أكثر مما كنتم تميلون إلى المشركين المادين بمكة . لأنكم كنتم تؤملون فى إيمانهم كثيراً ، كأهل كتاب . ولكن هم فى واقع الأمر لايحبونكم ولا يميلون إليكم . لأنهم يحقدون عليكم ، ويحسدونكم من أجل فضل الله بالرسالة عليكم ، وقد كانوا يودون : أن تبقى لهم الزعامة الدينية بما جاء إليهم من كتاب من عند الله . ولكن مجيء القرآن كان ضرورة إنسانية ، بعد أن حرف زعماء بنى إسرائيل كتاب الله قبله . ومع كونكم — أيها المؤمنون — تميلون إلى أهل الكتاب ، رغم عدم ميلهم هم إليكم : فإنكم تؤمنون بالكتاب كله . أى تؤمنون برسالة الله كما جاء بها موسى ، وكما أرسل بها رسولكم محمد عليه السلام ، فى القرآن ، مصدقاً لما قبله . ولكنهم هم لايؤمنون بكتاب الله . إذ أنهم يبدون لأتباعهم من رسالة الله جزء ، ويخفون عنهم منها أجزاء .. يخفون منها ما يؤيد القرآن ورسالة الرسول عليه السلام . ولذا اتخذوا أمام أتباعهم موقف المعارضة منه) ،

« **وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور** (أى وموقفكم

أيها المؤمنون من أهل الكتاب هو ما سبق . أما موقفهم منكم : فإنهم يخادعونكم : إذا واجهوكم ، والتقوا بكم : أعلنوا إيمانهم بالرسول وبرسالته ، ليضللوكم .. وإذا التقى بعضهم ببعض ، بعيداً عنكم ، نفسوا عن غيظهم وحقدهم بإعلانه فى غير حرج . ولكن هذا لايضركم . وفقط يجب أن تأخذوا حذركم منهم .. وتتجنبوا ولاءهم وصداقتهم .. واتركوهم لغيظهم وحقدهم يأتى عليهم ويفنيهم . والله سبحانه إذ يعلمكم بهذا الوضع ، لأنه يعلم ما تخفيه الصدور ، وما فى طيات النفوس) .

« **إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** (وبالإضافة فى مجال أسباب عدم موالتهم ، واتخاذ الحيطة منهم — إلى : عدم تقصيرهم فى بث الفساد بين المؤمنين .. وإلى تمنيهم مشقة الحياة وعنتها عليهم .. وإلى أنهم يضمرون العداء لهم بصفة مستمرة ، ويعلنونه أحياناً فى أحاديثهم .. وإلى أنهم لايؤمنون بكتاب الله ، كما جاء لهم : بل يؤمنون ببعض ، ويكفرون بالبعض الآخر .. وإلى أنهم يحاولون خداعهم بإعلان إيمانهم فى وجوههم ، وإعلان الحقد والغيظ منهم وراء ظهورهم .. بالإضافة إلى هذا كله : فهناك سبب آخر يكشف تماماً عن عداوتهم . وهو : أنهم يستاءون عندما يصيب المؤمنين ما يسرهم .. وعلى العكس : يفرحون ، عندما ينالهم السوء . ولاشك أن هذه أسباب كافية وواضحة فى أن يتجنب المؤمنون : المودة ، والصداقة معهم .. ويسلكوا مسلك عدم الثقة بهم فى معاملتهم) ،

« **وإن تصبروا ، وتتقوا ، لايضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط** » (ومع عدم الولاء لهم ، والصداقة معهم : فإن البقاء فى مرحلة الصبر والتحمل ، لم يزل هو ما ينصح به القرآن حتى الآن . ولاتترتب عليه أية آثار سلبية ، نتيجة لبغض هؤلاء أهل الكتاب ، وكراهيتهم ، ومكائدهم ، للمؤمنين . فهذا الصبر نفسه والتزامه سيفوت كذلك مضار هذا الوضع النفسى لهم ، إن كانت له مضار ، يقصد بها المؤمنون . والله سبحانه إذ لم يزل ينصح بالصبر ، مع الحيطة منهم ، وعدم الثقة فيهم :

يريد الخير بكم . لأنه نصح الخبير والمحيط بما من شأنه أن يقع من أمثال هؤلاء) (١) .

ـــ ثم تأتى سورة المائدة ـــ وهى ماقبل الأخيرة فى ترتيب نزول الوحى المدنى ـــ فتحدد : من هم المقصود بأهل الكتاب .. وتعلن فى غير لبس : أن الولاء لهم من جانب المؤمنين يعتبر انتكاساً للموالين ، وعودة بهم إلى صفوفهم . وهذا التحديد .. مع الإعلان : أمارتان فى منهج القرآن على الخطوة الأخيرة التى يجب أن يتخذها المؤمنون بعد ذلك : إزاء أعدائهم أهل الكتاب ، مع ما يقدمه المؤمنون إليهم حسبما يدعو القرآن ، من رغبة أكيدة فى الالتقاء معهم فى مجال الإيمان بالله وحده .. ومع ما دأب ، ويدأب عليه هؤلاء أهل الكتاب ، من معارضة القرآن ، وبغض المؤمنين ، وتدبير المكايد لهم ، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر . فتقول آية فى هذه السورة :

« **يا أيها الذين آمنوا : لا تتخذوا اليهود ، والنصارى : أولياء ، بعضهم أولياء بعض** ، (أى لا تستقيم علاقة الولاء بينكم من جانب ، وبين اليهود والنصارى من جانب آخر . لأن هناك خلافاً جوهرياً فى مجال الإيمان بالألوهية . أنتم أيها المؤمنون : تؤمنون بالله وحده : « **قل : إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فهل أنتم مسلمون** »(٢) . أما أهل الكتاب فقد انصرفوا عن وحدة الألوهية إلى الشرك فيها « **وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** (أى فى ادعائهم الشرك فى الألوهية هنا يشبهون الماديين الذين سبقوهم بالكفر فى مكة بما جاء به الرسول) **قاتلهم الله : أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ، ورهبانهم ، أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم** (فهؤلاء أهل الكتاب : اتخذ اليهود منهم ، زعماءهم من الأحبار : آلهة ، وأرباباً من دون الله .. واتخذ

---

(١) آل عمران : ١١٨ — ١٢٠ .

(٢) الأنبياء : ١٠٨ .

النصارى منهم : رعماءهم من الرهبان . والمسيح ابن مريم : آلهة ، وأرباباً من دون الله) **وما أمروا إلا ليعبدو إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** (وهم بسبب شركهم فى الألوهية ، بعد أن أمروا بعبادة الله وحده : يريدون ، أن يعودوا إلى ظلمات المادية والعهد الجاهلى للمجتمع ، وبذلك يطفئون هداية الله فى البشرية . ولكن هذه الإرادة منهم لاتتعدى أفواههم . لأن الله سبحانه بقدرته يأبى إلا أن يتم نوره برسالة الرسول عليه السلام وانتصاره فى دعوته ، مهما كان ذلك مزعجاً للمعارضين والكافرين برسالته) **هو الذى أرسل رسوله** (أى محمداً عليه السلام) **بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون** » (فالله سبحانه هو الذى اختار رسوله محمد بن عبد الله عليه السلام : للرسالة . وهى رسالة الهدى إلى النور من الظلام .. إلى نور الروابط الإنسانية بين الأفراد ، من ظلام المادية والمنفعة المتبادلة فى عهد الجاهلية . وهو سبحانه هو الذى أراد لدينه الذى جاء به رسوله الكريم أن يظهره ويسود على كل معتقد سواه ، وكل منهج فى الحياة عداه ، رغم كره المشركين : من الماديين الوثنيين .. وأهل الكتاب المعددين فى الألوهية ، لظهور هذا الدين ، وسيادته (١)) .

« **ومن يتولهم منكم ، فانه منهم** (والذى يرتبط من المؤمنين بأعداء القرآن من أهل الكتاب بعلاقة ولاء أو صداقة — بعد ما اتضح من عداوتهم ، وما اتضح قليل من كثير مما يضمرونه — يصبح واحداً منهم . أى يصبح عدواً للقرآن ومنكراً لهداية الله فيه) **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** » (فهؤلاء الأعداء من أهل الكتاب أقاموا الحجة الآن على أنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم بما جاء به الرسول محمد عليه السلام .. وظلموا كتاب الله بينهم ، لأنهم أخفوا الكثير منه على أتباعهم ، بينما يظهرون القليل منه لمصلحتهم ..

---

(١) التوبة : ٣٠ — ٣٣

ولأنهم كذلك يأمرون هؤلاء الأتباع بالبر . بينما هم ينسون أنفسهم ، فلا يبعدون من طريقهم عقبة المادية وتأثيرها على أنفسهم : فى التمسك بالزعامة ، والحرص عليها : بالكفر بما جاء به وحى الله ، مؤيداً لكتاب رسولهم بين أيديهم) (١) .

وهذا الإنذار الشديد للمؤمنين بالكف عن الولاء للأعداء من أهل الكتاب لم يوجه إليهم ، إلا بعد أن أمرهم القرآن بأن يدعوا أهل الكتاب للترابط معهم على أساس من الإيمان بالله وحده . فكانت دعوته المشهورة لهم : « **قل : ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ، من دون الله** »(٢) .. وكان الرفض من جانب أهل الكتاب .

ورسالة الله تضع أهميه كبيرة على وحدة الألوهية . لأن الإنسان فى كرامته .. وفى سلوكه .. وفى تحديد مصيره : مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنوع ما يؤمن به . فالإيمان بوحدة الألوهية يعطى الإنسان : ثباتاً واستقراراً فى سلوكه ، لأنه لا يتأرجح بإيمانه بين عديدين من الآلهة ، ولا ينتقل من واحد إلى آخر به ، ولعل أحد من يعبدهم يكون مساوياً له فى بشريته أو دون ذلك .. كما يعطيه ضماناً بالبقاء فى مستوى كرامته الإنسانية ، لأن الله المعبود وحده يتفوق فى صفات الكمال على الإنسان ، والإنسان الذى يتقرب إليه بمحاكاة صفاته : يتفوق أيضاً فى مستوى إنسانيته .

.. وإلا بعد أن أمرهم بأن يجادلوهم بما هو أكثر تهذيباً ، وأبعد عن اللوم والحرج : « **ولا تجـادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** (أى إلا بالطريقة المثلى فى النقاش) **إلا الذين ظلموا منهم** (إذ هؤلاء لايجدى معهم جدل ونقاش أصلا . لأنهم صموا آذانهم عن السماع ، وحجبوا أعينهم عن رؤية الحق) **وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا ، وأنزل**

---

(١) المائدة : ٥١ (٢) آل عمران : ٦٤

إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون »(١) . مع أن أسلوب الدعوة الذى أمر به الرسول عليه السلام ، بوجه عام ، هو أسلوب الحكمة : **« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »(٢)** .. وكانت الإساءة فى أسلوب الجدل من جانب أهل الكتاب : **« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم »(٣)** .

.. وإلا بعد أن أباح للمؤمنين طعام أهل الكتاب : **« اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم»(٤)**. بينما الطعام الخاص بالماديين الوثنيين ، أو المشركين : محرم على المؤمنين : **« وما أهل لغير الله به »(٥)** .. أى مما ذكر عليه اسم معبود آخر غير الله سبحانه ، فهو حرام .

.. وإلا بعد أن أباح للمؤمنين أيضاً : الزواج من المحصنات من الذين أوتوا الكتاب : **« والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** (أى أولائى وأولائكن حلال لكم) **إذا آتيتموهن أجورهن** (أى مهورهن) **محصنين ، غير مسافحين ولا متخذى أخدان** (أى إن كنتم فى زواجكم منهن قاصدين : أن تبتعدوا عن المسافحة واتخاذ الخدينات .. أى إذا قصدتم بزواجكم من المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم : العفة ، والبعد عن الزنا مكشوفاً ، أو فى صورة مقنعة) **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين»(٦)**.. بينما حرم على المؤمنين الزواج بالمشركات ، أى بالماديات الوثنيات : **« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ، ولو أعجبتكم »(٧)** .

---

(١) العنكبوت : ٤٦
(٢) النحل : ١٢٥
(٣) آل عمران : ٦٩
(٤) المائدة : ٥
(٥) المائدة : ٣
(٦) المائدة : ٥
(٧) البقرة : ٢٢١

فالمؤمنون من جانبهم : رحبوا بمشاركة أهل الكتاب فى الإيمان ، ودعوهم إلى طرح المعارضة وما يسيء إلى البشرية فى الاعتقاد فيما وراء وحدة الألوهية ،

والمؤمنون من جانبهم أيضاً أمروا بأن يحرصوا على رعاية إحساس أهل الكتاب ، رعاية خاصة ، عند البحث فى أسباب الخلاف بينهم ،

والمؤمنون من جانبهم كذلك أبيح لهم : أن يصاهروا أهل الكتاب فيتزوجون من نسائهم .. وأن يأكلوا من طعامهم فيشاركونهم حله .

وهكذا : طلبوا أن يكونوا معاً فى الاعتقاد .. وأن يكونوا فى صحبة بعضهم بعضاً ، فى الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا ، وفى بناء الأسرة .

لكن أهل الكتاب — وبالأخص اليهود منهم — دأبوا على الكيد للمؤمنين .. وعلى النفاق .. وعلى إضمار العداوة المستمرة . وغزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، فى شوال فى السنة الرابعة من الهجرة ، توضح : كيف استغل بنو النضير من يهود الشمال فى شبه الجزيرة العربية ، بالقرب من المدينة : تجمع قريش ، وغطفان ، وبنى كنانة ، وأهل تهامة ، فى عشرة آلاف مقاتل ، لغزو المدينة وفتحها ، والقضاء على الإسلام وأتباعه فيها : عندئذ نقض بنو النضير العهد الذى كان كان بينهم وبين الرسول عليه السلام ، وانضموا إلى هؤلاء المشركين فى غزو المدينة والهجوم عليها . وقد كان الخندق حول المدينة وحفره المؤمنون يومئذ ، وهم قلة بالنسبة لتجمعات الأحزاب . واتخذوه يومئذ أساس استراتيجيتهم ، فأخر هجوم الأعداء على المدينة قرابة شهر . ولم يقع بين الفريقين إلا الترامى بالنبل والحجارة . حتى أتت ليلة باردة ، فيها ريح عاصفة من شرق المدينة فاقتلعت خيام الأعداء ، وعرضتهم للبرد الشديد . وعندئذ قرروا الانسحاب ، والعودة إلى ديارهم من غير قتال . ولم ينالوا من المؤمنين ما يسيء إليهم ، ويفرحون هم به . وفى شأن هذه الغزوة يقول القرآن فى سورة الأحزاب : كيف كان وقعها السيء على المؤمنين .. وكيف أحرجتهم .. ثم كيف انتصر الله لهم :

« **يا أيها الذين آمنوا : اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود** (وهم جنود المادين الوثنيين ، وأهل الكتاب معاً . وصنع لهم المؤمنون الخندق حول المدينة) **فأرسلنا عليهم ريحاً ، وجنوداً لم تروها** (أى فكان من فضل الله أن شتت قوى الأعداء بريح باردة عاصفة . . وبتأييد للمؤمنين تأييداً غير محدود) **وكان الله بما تعملون بصيراً ،**

« **إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم** (توضيح لما جرى فى هذه الغزوة . فيصف القرآن هنا جنود الأعداء : بأنهم قدموا من أعلى الوادى فى المشرق . . ومن أسفله من المغرب) **وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا** (ولكثرة جنود الأعداء : مالت أبصار المؤمنين عن مستوى نظرها ، حيرة وشخوصاً . . واضطربت نفوسهم . . وتنوعوا فى ظنونهم : منهم المؤمن صدقاً : ينظر إلى الحادث على أنه ابتلاء من الله . ومنهم المنافق ينظر إلى الحادث على أنه سيستأصل المؤمنين إلى غير رجعة) .

« **هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً** (أى وكان هذا الحادث لجسامة خطره على المؤمنين : امتحاناً قاسياً لإيمانهم . . كما كان سبباً فى اهتزاز نفوسهم) .

« **وإذ يقول المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** (ولأنه حادث غير مألوف لهم فى حياتهم لم يصادفوه من قبل مع عدد من أعدائهم كان فرصة لتدخل المنافقين فى تفتيت وحدة المؤمنين ، وضعف حماسهم الإيمانى . فأخذوا يلقون بسمومهم بين المؤمنين . ففريق يقول : وعدنا الله بأرض الروم وفارس : « **ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعـد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس**

لا يعلمون » (١) .. ولكن ما وعدنا به هو ضرب من الغرور والخداع لأنا لا نستطيع أن ننمك عن مقاعدنا) . **« وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا** (وفريق آخر من هؤلاء المنافقين يدعوا المؤمنين من المدينة : إلى العودة إلى الشرك من جديد ، حتى يكونوا فى حماية القوة المادية الخطيرة التى للأحزاب الآن . على نحو ما يدعو بعض ضعاف النفوس فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة إلى اعتناق مذهب الملحدين الماديين كقوة عالمية بارزة اليوم ، كى يضمنوا لديهم الحماية) .

« ويستئذن فريق منهم : النبى ، يقولون : إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً » وفريق ثالث منهم يريد أن يسلك مسلكا يهز كيان المؤمنين ، ويحدث لديهم البلبلة والتردد . فيستأذن هذا الفريق من الرسول فى ترك الخندق ومن الوقوف عليه..والعودة إلى الأهل فى منازلهم ، بدعوى : أنها مكشوفة وغير مأمونة من الاعتداء عليها . وواقع الأمر لم يكن ذلك هو الدافع لاستئذانهم ، بل كان الدافع هو : الفرار ، وحمل الآخرين من المؤمنين على الاقتداء بهم) .. إلى أن يقول الله تعالى فى سورة الأحزاب : **« ورد الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً** (أى لأنفسهم مما قدروه كهدف من أهدافهم لهذا التجمع والتكتل) **وكفى الله المؤمنين القتال** (أى ولم يحوج الله سبحانه المؤمنين : إلى أن يدخلوا مع هؤلاء الأعداء فى قتال . إذ سلط عليهم الريح الباردة فغلبت عليهم كل ما قدروه من قبل) **وكان الله قوياً عزيزاً »**(٣) .

فهذا مثل من الأمثلة العديدة لليهود خاصة من أهل الكتاب ، لماتنطوى عليه نفوسهم من الغدر والتربص بالمؤمنين . وهو يعطى : أن أهل الكتاب فى بعد تام عن تلك الروح التى عبر عنها المؤمنين حيالهم ، بما أشار إليه القرآن من دعوتهم : فى مضمونها .. وأسلوبها ، ومن معاملتهم : فى مشاركتهم الحياة .. وقيام الأسرة .

---

(١) الروم : ١ — ٦
(٢) الأحزاب : ٩ — ١٣
(٣) الأحزاب : ٢٥

المؤمنون يرغبون فى المعاملة الطيبة .. وهؤلاء أهل الكتاب يزيدون فى العداء ، حتى إذا سنحت لهم فرصة يظنون فيها : أن الأمر كاد ينتهى بالمؤمنين ، لم يتركوها ، ويشاركوا الأعداء الماديين — وهم أعداؤهم أيضاً — محاولة القضاء عليهم . كما يستخلص من غزوه الخندق .

نعم قد تميز اليهود عن النصارى من أهل الكتاب بقسوة العداء ، وإحكام المؤامرات ، واشاعة الفساد والفرقة بين المؤمنين. وجاء فى ذلك قوله تعالى :

« **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود ، والذين أشركوا** (فقرنت الآية اليهود بالمشركين فى مستوى العداء للمؤمنين - وذلك لأن اليهود بقى لهم من كتاب موسى : الانتساب إليه فقط ، ولكن سلوكهم ، واتجاههم ، وهمهم فى الحياة : تنبىء كلها عن أنهم أصبحوا ماديين : وعن أن بعضهم أصبح مشركا بادعائه : أن عزيراً ابن الله) ،

« **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا : الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ، ورهباناً ، وأنهم لا يستكبرون** » (وفى الوقت نفسه تميز هذه الآية : النصارى بأنهم أقرب أهل الكتاب فى المودة إلى المؤمنين . وتوضح سبب هذا : بأنه لم يزل منهم من هو بعيد عن الاتجاه المادى . فمنهم القساوسة ، والرهبان . هؤلاء ، وأولئكم بحكم اتجاههم لا يجعلون للجانب المادى سيطرة كبيرة على نفوسهم فى السلوك فى الحياة . ومن جانب آخر لا تغريهم الزعامة ، ومن ثم لا يحرصون عليها فيؤمنون فى سبيلها بالباطل ويكفرون بالحق ، كما يفعل اليهود . فهم لا يستكبرون . أى لا يتطلعون إلى أن يكونوا كباراً فى المجتمع ، ولهم أتباع يخضعون لرياستهم المادية) (١) .

ولكن مع ذلك فاليهود والنصارى سواء فى أنهم : يرون أن المؤمنين بالقرآن : فى ضلال ، وأن عداوتهم لهم تستهدف ردهم عن دينهم : « **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** » (٢) .. وأن المؤمنين لكى يهتدوا فى نظر أهل الكتاب : يجب عليهم أن يكونوا : إما يهوداً ، أو نصارى .. أى يكونوا أتباعاً لفريق منهم : « **وقالوا** (أى بنو إسرائيل

---

(١) المائدة : ٨٢ (٢) البقرة : ٢١٧

من الفريقين) : **كونوا هوداً ، أو نصارى ، تهتدوا** » (١) (والخطاب موجه إلى المسلمين بالأمس من أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام . وما أشبه يومنا بأمس هؤلاء . فاليوم يريد أعداء القرآن : من المسلمين ، ما أراده أعداؤه منهم بالأمس . وفقط أعداء اليوم : هم الماديون أصحاب الرأسمالية .. وكذلك الماديون الاشتراكيون أتباع الماركسية . ويشاء الله أن يكون اليهود اليوم وراء الرأسمالية .. والاشتراكية معاً فى الوقت المعاصر ، وقد كانوا هم أى اليهود — بالأمس على عهد القرآن يباشرون الاتهام ضد المؤمنين ، ويوجهون إليهم الدعوة بترك القرآن . بينما اليهود والنصارى فيما بينهم : يتهم بعضهم بعضاً ، إذا لم يواجهوا المسلمين . والقرآن يحكى عنهم بالأمس ما كان يقال من بعضهم لبعض: « **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** » (٢) .. واليوم كذلك إذا كان عداء الأيديولوجية الماركسية للرأسمالية العالمية واضحاً ، وإذا كان كلاهما يتهم الآخر بظلم البشرية ، وانتهاك كرامة الإنسان وحريته ، مع أن صانع الماركسية وأصحاب الثورة البلشفية والفكر الاشتراكى من اليهود .. ومع أن أصحاب الرأسمالية والتعامل بالربا من اليهود أيضاً .. فإنهما إذا واجها معاً : المسلمين اليوم فليس لهما من دعوة مشتركة إليهم ، سوى أن يقولوا لهم : إذا أردتم أن تتقدموا فكونوا إما من أتباع العالم الحر — وهو رمز الرأسمالية .. أو من أتباع العالم الاشتراكى الماركسى) .

موقف القتال :

— والمؤمنون بالقرآن — لكى يبقوا مؤمنين به — يجب أن ينتقل موقفهم الآن — بعد هذا العداء المرير : من الحيطة .. وعدم الولاء من أهل الكتاب إلى قتالهم ، إن اضطرهم هؤلاء إليه . لأنه ليس هناك فى مواقف الإنسان من إنسان آخر يناصبه العداء ، ويحمل عليه ، ويدبر له المكايد ، بعد

---

(١) البقرة : ١٣٥ (٢) البقرة : ١١٣

الصفح والتحمل .. وبعد إنذاره بقطع علاقة الولاء له ، فى غير جدوى لهذا ، أو لذاك : إلا برد اعتدائه : بالقتال ، إن اتخذ هو القتال صورة مادية لعداوته النفسية .

ولذا : عقب غزوة الخندق ــ وفى ذى القعدة من السنة الخامسة من الهجرة ــ يحكى القرآن الكريم ما قام به الرسول عليه السلام والمؤمنون معه ، من حصار بنى النضير وقريظة من اليهود حول المدينة ، على أثر نقضهم العهد ومشاركتهم مع المشركين الماديين فى محاولة غزو المدينة فى السنة التى سبقتها . ويشير القرآن إلى ذلك ، بعد ما انتهى من حديثه عن الخندق أو الأحزاب ، فى قول الله تعالى ، فى سورة الأحزاب أيضاً :

« **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم** (أى وأخرج اليهود من قلاعهم التى كانوا يتحصنون بها فى قريتهم حول المدينة . فهم قد ساندوا المشركين فى محاولتهم فى السنة السابقة : الهجوم على المدينة . وأخرجوا الآن من هذه الحصون بدون قتال ولكن حاصرهم الرسول عليه السلام والمؤمنون معه ، مدة دامت إلى ما يقرب من العشرين يوماً ، استسلموا بعدها) ،

« **وقذف فى قلوبهم الرعب : فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً** (وكان وقع الحصار عليهم شديداً ، واستطاع أن يهز نفوسهم من الخوف على حياتهم وعندما استسلموا استشارهم الرسول عليه السلام فيمن يتولى الحكم عليهم فارتضوا سعد بن معاذ ، وكان جريحاً بالمدينة فى هذا الوقت . وعندما حضر بعد استدعائه : أشار بقوله : تقتل المقاتلة (أى من الذين اشتركوا فى غزوة الأحزاب مع المشركين) .. وتسبى الذرية والنساء .. وتقسم أموالهم فأخذ به ، وحكاه القرآن هنا فى قوله : «**تقتلون** (أى فريقاً منهم)**وتأسرون فريقاً** » ،

« **وأورثكم أرضهم ، وديارهم وأموالهم** (لأنهم أجلوا عنها بعيداً إلى الشام . وقسم المسلمون ما أخذوه منهم ، فيئاً : أعطى منه المهاجرون ، ولم يعط الأنصار) .

« وأرضاً لم تطأوها (ويقول المفسرون : إنه يشير إلى أرض الروم ، والفرس .. وقيل إنه يشير إلى أرض خيبر لليهود أيضاً فى شمال المدينة . وقد أخذت عنوة فى السنة السابعة) **وكان الله على كل شىء قديراً** »(١) .

نعم المسلمون وإن لم يقاتلوا بالسيف بنى النضير ، وقريظة ، ولكن حاصروهم بما يشبه القتال به ، فى آثاره : من الرعب والخوف ، والجوع . ولذا كان التسليم : نهاية له . فالحصار نوع من قتال الأعداء .. وهو موقف آخر فوق موقف : عدم الولاء للأعداء ، الذى التزم به المسلمون حيال أهل الكتاب حتى الآن . ثم عندما كان فتح خيبر ، وهى مركز اليهود فى شمال شبه الجزيرة فى السنة السابعة من الهجرة ، قيل إنها أخذت كلها بالقتال .. **وقيل** إن بعضها أخذ بالقتال .. والبعض الآخر لم يحتج فيه الأمر إلى السيف ، **فأخذ** صلحاً .

وكان الأمر بعد ذلك : أجلى الرسول عليه السلام : يهود المدينة كلهم ، من : بنى قينقاع ، رهط عبدالله بن سلام .. ويهود بنى حارثة .. وكل يهودى آخر بالمدينة .

ـــ والقتال إذا طلب كموقف يجب أن يتخذه المؤمنون ضد أعدائهم : فإنه أمر ليس بالمقبول لدى النفوس البشرية عامة . ولكنه ضرورة قد تقتضيها الحياة نفسها . كالقصاص مع أنه قتل لنفس إنسانية ، لكنه من جانب آخر فيه ـــ حياة لأمة ولمجتمع : « **كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » (٢)

وضرورة القتال فى الحياة الإنسانية هو لوقاية المجتمعات من الفساد والانحرافات ، التى قد يباشرها العابثون فيها ، وربما يسيطرون به على مصيرها : « **ولولا دفع الله الناس ، بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** » (أى لولا عناية الله بالبشرية فى أن يتصدى من وقت

---

(١) الأحزاب : ٢٦ – ٢٧ (٢) البقرة : ٢١٦

لآخر بعض من الناس ، وهم المستقيمون ، لبعض آخر منهم ، وهم المفسدون ، بالقتال والإفناء : لسيطر الفساد والعبث على هذه الأرض . ولكن فضل الله على البشرية اقتضى هذه الرعاية بدفع الناس ، بعضهم بعضاً ، كقانون يحكم هذه المجتمعات وقيل هذاالقول فى الآية تعقيباً على هزيمة داوود لجالوت وجنوده .. أى تعقيباً على قتال أهل الكتاب للماديين من الأشوريين) (١)

وقد فسر ما جاء فى سورة الحج — وهى السورة السابعة عشر فى ترتيب نزول الوحى المدنى — الفساد ، الذى أشارت إليه الآية السابقة . وهو الفساد الناتج عن عدم الممارسة للعبادة لله سبحانه ، من أهل الكتاب والمؤمنين جميعاً . أى هو ذلك الفساد الذى يعم البشرية يوم تطغى المادية ، وتهدم كل أمكنة العبادة .. وتنشر كل إباحية ورذيلة : خلقية ، وجنسية وما جاء فى سورة الحج هو قول الله تعالى : **«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض : لهدمت صوامع ، وبيع** (للنصارى ورهبانهم) **وصلوات** (لليهود) **ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز»** (٢) .

وبما تشير إليه هاتان الآيتان هنا يصبح القتال بين الماديين ، ومن عداهم من الإنسانيين أو المؤمنين بالله ضرورة بشرية ، أو قانوناً من القوانين الاجتماعية التى تحكم البشرية . ولكن : ما هى المجتمعات التى يقع بينها القتال لإنقاذ البشرية من فساد المادية ؟ . ومتى ، وفى أى جيل ؟ ذلك رهن بالظروف التى تكون جو القتال .. ووقته .

ولضرورة القتال كقانون بشرى اجتماعى . يطلب القرآن من المؤمنين فى الصورة الثانية فى الوحى المدنى ، وهى سورة الأنفال : أن يعدوا أنفسهم للقتال . أى أن يكونوا على استعداد لمواجهة أعداء الإيمان فى أى وقت ، وفى أى عهد من عهودهم . فيقول تعالى :

---

(١) البقرة : ٢٥١ (٢) الحج : ٤٠

« **وأعدوا لهم** (أى للأعداء الذين ذكرهم الله فى قوله قبل هذه الآية : « **إن شر الدواب عند الله : الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون (١)** » **ما استطعتم من قوة** (عددية ومادية) **ومن رباط الخيل** (من الحصون والقلاع) **ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم** (مستهدفين من هذا الإعداد : أن يخشاكم أعداء الإيمان ، وهم أعداء الله ، الذين تكشفت لكم عداوتهم . . وكذلك أولئكم الذين من ورائهم يساندونهم فى خفية منكم . قيل : إن اليهود . . أوالفرس كانوا من وراء الماديين يومذاك . فأنتم لا تعلمونهم ، ولكن الله يعلمهم) **وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون** » (ويجب أن تتذكروا : أن إنفاقكم فى الإعداد والعدة لمواجهة أعداء الله ، هو إنفاق فى سبيل الله . وأى شىء تنفقونه فى هذا السبيل يؤدى لكم جزاؤه من غير نقص ، من الله جلت قدرته) (٢) .

ولقيمة الحديد وصناعته فى الإعداد للقتال والقوة المادية : امتن الله به على المؤمنين ، كما يمتن عليهم بكتاب الله ورسالته فى سبيل الهداية لأن هذا الكتاب إذا كان للهداية . . فالحديد للقوة وللعزة . والهداية ، والقوة المادية أمران ضروريان لنصرة دين الله . . ومقاومة عبث المادية وفسادها على هذه الأرض : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز** »(٣).

ـــ وقتال المؤمنين لأهل الكتاب يستهدف رد عدوانهم على الأمة .. كما يستهدف استسلامهم ، وكسر شوكتهم : بينما قتالهم للمشركين يستهدف : حماية الدين نفسه . أى يستهدف : أن يصبح الدين بعيداً عن فتنة المادية ، وما يثيره الماديون من قلق واضطراب بين المؤمنين ، أو ضدهم ، ومن تشويه للدين والصد عن سبيله .

---

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) الأنفال : ٦٠

(٣) الحديد : ٢٥

فى قتال المشركين يقول الله تعالى :

« **فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة** (أى وبذلك أصبحوا مؤمنين فى العمل والتطبيق) **فاخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون** »(١) .

•• ويقول أيضاً :

« **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا** (أى بالإيمان بالإسلام) **فان الله بما يعملون بصير** » (٢) . .

• • فحدد الهدف الذى ينتهى إليه قتال المؤمنين للماديين بما يعبر عنه القرآن هنا : بأن لا تكون فتنة : ويكون الدين كله لله ، وذلك بالقضاء على المادية والماديين •• وبما يعبر عنه من قبل : بتوبة الماديين ، وإيمانهم عن طريق أدائهم للصلاة • والزكاة . فالقضاء على المادية والماديين هدف يجب أن يستهدفه المؤمنون فى قتالهم ، إن أجبروا على القتال واضطروا إليه : « **وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** »(٣) .

وقتال المشركين للمؤمنين كافة : يعم المؤمنين فى أى مكان ، وفى أى زمن . ولذا كان أمر الله للمؤمنين : « **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم** (أى أكثرتم من قتالهم) **فشدوا الوثاق** (أى قيدوهم بالأسر) **فاما منّاً بعد ، وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها** (وتخيير المؤمنين الآن — فى سورة محمد — فى أسراهم من أعدائهم : بين المن عليهم ، وإطلاق سراحهم .. أو إفدائهم بأسرى للمؤمنين ، أو بمال وغيره : يأتى فى وضع يختلف فيه مجتمع المؤمنين عن ذى قبل . وهو وضع القوة . أما فيما مضى عندما عاتب رسوله

---

(١) التوبة : ١١ (٢) الأنفال : ٣٩
(٣) التوبة : ٣٦

على قبول الفداء لأسرى بدر فى قوله تعالى فى سورة الأنفال - وهى السورة الثانية فى الوحى المدنى :

« **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** (١) » .. فلأن المؤمنين إذ ذاك لم تكن لهم قوة متمكنة من ضرب أعدائهم . فكانوا ضعافاً ، وفى بداية تكوين مجتمعهم . ولذا كان الأولى فى ذلك الوقت : إرهاب العدو ، وتحطيم شوكته بقتل أسرى الحرب وعدم فدائهم) ، **ذلك ، ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض** » (والمجتمع فى قتاله مع أعدائه يدور أمره بين النصر والهزيمة . لأن ذلك قانون الحياة الإنسانية . والقتال بالنسبة للإنسان هو ابتلاء لإيمانه وقوته : فى ترابطه على أساس منه مع الآخرين . والمؤمنون فى مجتمعهم يخضعون لقانون الحياة ، ولابتلاء الإنسان بالقتال ، لأنهم بشر . والأمر إذن مع أعدائهم هو أمرهم هم ، وليس أمر الله سبحانه . لأنه لو كان أمر الله لانتصر منهم . إذ شأنه أنه القوى العزيز الذى لا يغلب) (٢) .

أما تحديد الهدف من قتال أهل الكتاب من جانب المؤمنين ، بأنه لوقاية مجتمعهم ، فالتطبيق الذى وقع مع اليهود فى بنى قريظة والنضير ، اكتفى باستسلامهم . والقرآن يعبر عن هذا الاستسلام بتعبير آخر فى قول الله تعالى فى آخر سورة نزلت فى التشريع المدنى ، وهى سورة التوبة :

« **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله** . (وهم المشركون ، أو الماديون الوثنيون . لأنهم وحدهم من أعداء الإيمان بالله ، الذين ينكرون الله . . واليوم الآخر ، أو البعث ، وهم كذلك الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله : فى طعامهم . . وفى استمتاعهم بمتع هذه الحياة . . وفى النظرة إلى الإنسان

---

(١) الأنفال : ٦٧ - ٦٨ (٢) محمد : ٤

وحرمته ، ومسكنه ، وأولاده . وغاية القتال هنا مطوية ، يحددها فى السورة نفسها مثل قوله تعالى : « **فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** (١) » .. فغاية القتال هى الإيمان بالإسلام . وعبر عنها بقوله : « **فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ») ،

« **ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صـــاغرون** (أى وقاتلوا كذلك : الذين لا يدينون دين الحق من أهل الكتاب . فطوت الآية الأمر بالقتال ، اكتفاء بذلك الأمر به صراحة عندما جاء فى أولها . ولكنها صرحت بالغاية من قتال المؤمنين لأهل الكتاب . وهى الاستسلام ، مع البقاء على دينهم : « **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** » (أى وهم مستسلمون) . فالصغار أو المذلة هنا كناية عن الاستسلام : أما إعطاء الجزية فذلك لأنهم لا يلزمون بالزكاة ، كالمؤمنين ، فلكى يكون هناك تكافؤ بين أفراد المجتمع ألزم أهل الكتاب بإعطاء الجزية ، بينما فرض على المؤمنين إخراج الزكاة . والجزية ليس لها مداول آخر إلا أن من يعطيها باق على إيمانه ، لايضار فيه إطلاقاً من جانب المؤمنين . وليست لها صلة قريبة أو بعيدة بمعنى الاستسلام ، إلا أنها جاءت نتيجة له . أما الاستسلام فهو مأخوذ من قول الله تعالى فى الآية : « **وهم صاغرون** ») (٢) .

وهذه الآية من سورة التوبة تحمل إذن أمرين :

أولا : طلب قتال الماديين . . وأهل الكتاب ، كموقف أخير يجب على المؤمنين مباشرته ، فى ملابساته الخاصة .

---

(١) التوبة ٥ (٢) التوبة ٢٩

وثانياً : تحايد هدف القتال بالنسبة للأعداء الماديين : **بأنه الإيمان بالإسلام** . . وبالنسبة **لأهل الكتاب** : **بأنه الاستسلام** ، **وليس الحمل على الإسلام** .

• وقتال المؤمنين للماديين الوثنيين .. ولأهل الكتاب : لا يعنى أنه لا يتوقف ، إذا عرض : السلم على المؤمنين من أعدائهم . بل القرآن يأمر المؤمنين بقبول المسالمة عندما تعرض عليهم ، **إن كانت تحقق نفس الغاية من القتال** . وهى إسلام الماديين . . واستسلام أهل الكتاب .

فيقول فى سورة الأنفال :

« **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم** (والسلم هو المسالمة ، وهو ما يعرف بالهدنة الآن . والجنوح إليها هو الميل لها . وهذه الآية وإن كانت جاءت عقب قوله تعالى فى السورة نفسها : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم (١)** » . . لكن ليس المقصود من التعقيب بها بعدها : أن يتراخى المسلمون فى إعداد أنفسهم للقتال ، عندما يقبلون عرض أعدائهم بالمسالمة . لأن تراخيهم فى الإعداد : هو قبول منهم للمذلة . . ووصول بهم إلى فقد استطاعتهم فى فرض السلام فى حياتهم ، على أعدائهم . وإنما المقصود من هذا التعقيب : إن طلب الأعداء من المؤمنين أن يسالموهم – والمؤمنون فى حال قتال معهم .. أو فى حال هدوء قائم على الإعداد للقتال – فعلى المؤمنين : إما أن يكفوا عن القتال .. أو يظلوا فى حال الهدوء ، مع الاستمرار فى حالة الإعداد للقتال . وفى حال قبول المؤمنين للمسالمة يجب أن يتوكلوا على الله فى قبولها . لأنه خير مساعد لهم فى وقاية مجتمعهم . . ودينهم معاً) ،

« **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً**

---

(١) الأنفال : ٦٠

ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم (وإذا استهدف الأعداء من عرضهم للسلم وقبول المؤمنين له : خداع المؤمنين لفترة ، ينقضون بعدها عليهم ، فالله كافى المؤمنين فى تفويت هذه الخديعة على المخادعين.

أولا : لأن الله هو الذى أرشدهم وطلب منهم أن يكونوا على استعداد مادى .. ونفسى فى مواجهة أعدائهم .

وثانياً : هو الذى ربط بين المؤمنين برباط واحد ، وهو رباط الإيمان بالله ، بدلا من الرباط القبلى والأسرى السابق . وهو رباط يقوى على الأحداث ، ويتفوق فى أثره فى مواجهة الأزمات . والأمران معاً ، من إعداد القوة .. ورباط الإيمان : كفيلان بأن يستتبعاً النصر للمؤمنين أصحاب القوة ، فى لقاء القتال مع أعداء ماديين ، لا تربطهم إلا روابط المنفعية والمبادلات المادية) ،

«**إنه عزيز حكيم**» (ومن صفات الله جل شأنه : العزة والمنعة، وتفوقه فى القدرة على كل موجود سواه .. والحكمة كذلك . وهى البعد عن سوء التقدير . . وعن الجهل ، والحمق . ويريد جل شأنه للمؤمنين به فى عبادتهم إياه : أن يحاكوا فى أنفسهم : هاتين الصفتين : صفة العزة.. وصفة الحكمة . والمؤمنون على سبيل الحقيقة : هم الأقوياء الذين يحولون بقوتهم دون اعتداء أعدائهم عليهم .. وهم كذلك أصحاب الحكمة فى توجيه قدرتهم . ومن الحكمة هنا : أن يقبل المؤمنون طلب الهدنة من الأعداء . ولكنه قبول فى حذر وحيطة ، تمنع من الغدر ، والخداع والخيانة . وحيطتهم هى : أن يبقوا على قوتهم دائماً) »(١) .

وإذا كان القرآن يمنع المؤمنين من أن يطلبوا بادىء ذى بدء : الهدنة مع الأعداء . فى قوله تعالى فى السورة التاسعة فى الوحى المدنى ، وهو سورة محمد : « **فلا تهنوا ، وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون** (٢) » : لأنه يرى فى طلبها ، امتهاناً لهم . . وتحريضاً غير

---

(١) الأنفال : ٦١ – ٦٣ (٢) محمد: ٣٥

مباشر لأعدائهم : على أن يستطيعوا منذ الآن أن ينالوا منهم ، ويفرضوا عليهم شأن عداوتهم . . إذا كان يمنعهم من ذلك ، فإنه لا يرى بحال : التراخي في حال إعداد الأمة للقتال أثناء الهدنة . . ولا يرى كذلك : أن تفوت الهدنة على المؤمنين : هدفهم في وقاية مجتمعهم ، ودينهم معاً ، من فرض القتال عليهم ، كوسيلة لدفع أهل الكتاب إلى الاستسلام . . ولحمل الماديين على العودة إلى الإسلام .

★★★

وهكذا : منهج القرآن في تطوير المجتمع ، في علاقات المؤمنين بأعدائهم : يحدد موقف المؤمنين إزاءهم :

أولا : بالصبر .. والصفح عن أذاهم ، في حال ضعف مجتمعهم.

وثانياً : برد الاعتداء بمثله . . والصبر عليه : خير من رده ، إذا لم يكن مجتمعهم في حال من القوة تساعد على انتصارهم .

وثالثاً : بعدم إيثارهم بالولاء والمودة : على المؤمنين ، تمهيد لموقف التكتل بينهم ، إذا فرض القتال .

ورابعاً : بعدم الثقة فيهم .. وبأخذ الحيطة والحذر منهم ، زيادة في التكتل والتجمع بين المؤمنين .

وخامساً : بقتالهم حتى يسلم المادى .. ويستسلم أهل الكتاب .

وسادساً : بقبول الهدنة ، مع استمرار الإعداد للقوة . . ومع استصحابها لأهداف القتال مع الأعداء ، حتى تبقى لهم عزتهم، وحريتهم في ممارسة عبادتهم وإيمانهم بالله .